الفصل السابع
الإطار العام لمنهج الإسلام التربوي

الفصل السابع
الإطار العام لمنهج الإسلام التربوي

من نافلة القول أن نؤكد هنا أن من أبرز سمات ذلك الإطار أو فلنقل ذلك المنهج التربوي أنه يتميز على المناهج الاجتماعية بأنه منهج عبادة، ولكن العبادة في هذا المنهج تحتاج الى توضيح: فهي ليست قاصرة على مناسك التعبد المعروفة من صلاة وزكاة.. وإنما هي معنى أعمق من ذلك جداً.. إنها العبودية لله وحده.. والتلقي من الله وحده في أمر الدنيا والآخرة كله.. ثم هي الصلة الدائمة بالله في هذا كله.

و هذه الصلة في الحقيقة هي منهج التربية كله، تتفرع منه جميع التعريفات وتعود في النهاية كلها إليه.

والصلاة والصيام والزكاة والحج وسائر الشعائر التعبدية، إن هي إلا مفاتيح... مجرد مفاتيح للعبادة، أو (محطات) يقف عندها السائرون في الطريق يتزودون بالزاد، ولكن الطريق كله عبادة، وكل ما يقع فيه من نسك أو عمل، أو فكر أو شعور فهو كذلك عبادة... ما دامت وجهته إلى الله، ما دام قد شهد حقاً – لا باللسان- أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وأقام حياته كلها وواقعه كله على هذا الأساس.

والعبادة بهذا المعنى تشمل الحياة بكل مافيها من سلوكيات وتوجهات، إنها لا تقتصر على اللحظات القصيرة التي تشغلها مناسك التعبد، وما هذا هو القصد من الآية الكريمة: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (١).

إنما قيمتها أن تكون منهج حياة يشمل كل الحياة، قيمتها أن تكون خطة سلوك وخطة عمل وخطة فكر وخطة شعور، قائمة كلها على منهج واضح، يتبين فيه – في كل لحظة- ما ينبغي وما لاينبغي أن يكون.

ومرد الأمور كلها في ذلك هو الله، هو المرجع الذي يرجع إليه في كل أمر ودستوره هو الدستور الذي يستثار في كل لحظة، يستثار في داخل القلب وفي وعي العقل وفي واقع السلوك.

إن إيجاد الصلة بين القلب البشري وبين الله، الصلة الدائمة التي تدفع القلب الى الرجوع لله في كل لحظة، وفي كل أمر، هو القاعدة الرئيسية للتربية الإسلامية، التي يتم بها كل شيء، ومن دونها يصبح كل شيء خواء.

---

(١) سورة الذاريات الآية: ٥٦.

والإسلام يتخذ لهذا الهدف كل وسيلة من الوسائل الموصلة، بالتوقيع على كل وتر من أوتار النفس الإنسانية.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام والإشارة إليه أن بعض مناهج التربية يربط القلب البشري ببقعة من الأرض معينة، وبعضها يربطه بفرد من الناس معين وبعضها يربطه بأسطورة من الأساطير، ثم يكون المنهج كله قائماً على هذه القواعد، فيصطبغ العمل والشعور والفكر والسلوك بهذه الصبغة، ويتجه كله في هذا الاتجاه، ثم ينشأ الفرد على (فضائل) بعينها مستمدة من هذه القاعدة نابعة من مفاهيمها، متمشية مع صالحها.

ولا شك أن في هذه الفضائل قدراً من الفضائل (المطلقة) التي تلتقي عندها البشرية، فمهما ضلت البشرية وانحرفت فإنها بمقومات الفطرة التي وهبها الله للناس جميعاً تهتدي إلى قدر من (الحق) قليل أو كثير، ولكنها غالباً ما تكون فضائل ذاتية خاصة بقوم أو جماعة دون أخرى وليس من بينها فضائل (إنسانية) حقا إلا ما كان نابعاً من العقيدة في الله، مستمداً من دستوره الذي ارتضاه وهو هدي الإسلام وفق ما جاء في الكتاب والسنة.

وخذ ذلك مثلاً مناهج التربية الأوروبية، وخذ من بينها أفضلها جميعاً في نظر كثير من الناس: التربية الإنجليزية، إنها تنشئ الفرد على كثير من الفضائل، لايسرق ولا ينهب ولا يغتصب ولا يكذب ولا يغش، استقامة جميلة في الطبع والمعاملة، استقامة مريحة تثير الإعجاب، وميل الى التعاون ونبذ للأنانية وإحساس بالصالح (العام) وتضحية بشيء من الصالح الخاص في هذا السبيل، كل ذلك نعم.

ولكنه في حدود بريطانيا، في حدود القومية البريطانية، فإذا انتقل هذا الرجل الإنجليزي قيد شعرة خارج الحدود البريطانية، خارج الوثن الذي ربي على عبادته، وقام منهج التربية كله على أساه، فهنا يفجؤك منه شخص آخر لم تعهده من قبل، الأنانية البغيضة والجشع الكريه، والغش والخداع والكذب والدسيسة، والغصب والسلب والنهب، وإيثار الصالح الخاص على كل قيم إنسانية أو صوت للضمير.

كلا، وإنما هو ما يزال مخلصاً للوثن الذي يتعبده، ولم يكن قط مخلصاً (للإنسانية) لأنه لم يترب تربية إنسانية ولم يكن قط مخلصاً لله، لأن قاعدة ترقيته لم تكن الاتصال الحقيقي بالله.

ذلك مثل يبين الفارق الحاسم بين منهج التربية الإسلامية ومنهاج التربية غير الإسلامية، ويبين في الوقت ذاته لماذا يحرص الإسلام – كلمة الله إلى (الإنسان) عامة – على أني قيم منهجه التربوي على أساس العبادة- بمعناها الواسع- وعلى أساس الصلة الدائمة بالله. إن تحقيق توحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية له وحده سبحانه بإقرار العبادة له دون سواه ضمان حقيقي للخير في هذه الأرض بعقد الصلة الحية

الواصلة بين القلب البشري والله، لا ضمان لإقامة الحق والعدل الأزليين إلا بالتقاء البشر كلهم عند خالقهم، ومن ثم استشعار الرابطة الإنسانية الحقيقية التي تربط الجميع.

وإذ يدرك الإسلام هذه الحقيقة فإنه يجعل العبادة هي القاعدة الكبرى، ويستمد مها نظام الحياة كله، الفرد في خلوته، والناس في جمعهم، في وقت التعبد وفي وقت العمل وفي وقت التعامل في تجارة أو صناعة أو سياسة أو حرب أو سلم، وفي وقت المودة وفي وقت الخصومة، وفي كل لحظة من هذه اللحظات يربي الإسلام الفرد على أن تكون صلته بالله، وتعامله مع الله، وخشيته من الله، وحبه لله، ورجوعه الى منهج الله، فإذا ختم صلاته هبت في داخل نفسه نوازع الطمع والجشع والعدوان أو تخاذل عن القيام بالأمانة، أو ضعف عن نصرة الحق، أو تواكل عن العمل المنتج في عالم الحس.

كلا، فما هو إذن موصول القلب بالله ولا هو المسلم القوي الذي هو أحب الى الله من المسلم الضعيف. والعبادة هي السير في الطريق، مع التردد بين الحين والحين، والسير في الطريق والقلب يحمل الشحنة الحية الواصلة، التي تدفع للعمل..ز تدفع دائماً الى الأمام.

والإسلام يحرص حرصاً شديداً على هذه الشحنة التي تعبئ القلب، فتكون الهادي له في الطريق، وتهديه وهو في خلوته يفكر ويشعر، وتهديه وهو قائم يعمل بيديه وجسمه، وتهديه وهو يلقي أخوته البشرية ويتعامل معهم، وتهديه وتضيء له كالقبس ظلمات الطريق فلا يتعثر لا يجثم في عثرته، وإنما ينفض عنه التراب ويقوم، مادامت الشحنة حية تضيء.

والإسلام صريح في اعتبار العمل هو العبادة مادام القلب يتجه فيه الى الله، ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ (١)

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٧٧.

هذا هو منهج العبادة الذي يرسمه الإسلام ويقيم عليه أسسه التربوية وينظم الحياة الاجتماعية على هديه ويشترط في كل ذلك الصدق مع الله، والتقوى لله أي الصلة الدائمة بالله.

ضوابط المنهج الإسلامي

ضروب الحياة المختلفة التي تتحدد فيها حركة المسلم في ضوء الحلال والحرام الذي يؤمن به ويلتزم العمل به، لا ينضبط السلوك المسلم فيها إلا بإيقاع الروح تحت تأثير هديها، فما الروح الذي يهيمن على المسلم ويضبط سلوكه؟ إنها شيء مبهم غامض ليست له حدود.

وهذا الإبهام في طبيعة الروح، والغموض الذي يحيط بها، والعجز عن إدراك كنهها، هو الذي أغرى الماديين في العصور الحديثة أن يهملوها إهمالاً ويسقطوها من الحساب.

ولكن الدوس هكسلي يرد عليه في هذا الأمر، رغم أنه لا يؤمن بالدين، فيذكرهم بحقيقة ينسونها وهم يجادلون: (إنه لم يعد لنا مناص من الاعتراف بأن بعض البشر مزود بالقدرة على استشفاف المجهول بطريقة خارجة عن نطاق الحواس، وأن جهلنا بالطريقة التي يتم بها هذا الاستشفاف لايبرر إنكارنا له، فإنه لا يزيد على جهلنا بالطريقة التي تتم بها عملية الإدراك وعملية التذكر، من منا يستطيع أن يعرف كيف تتم معجزة الإدراك؟ أو التذكر؟. كذلك نحن لانعلم كيف يتم الاستشفاف، ولكنه رغم ذلك حقيقة علمية)

إن الدوس هكسلي لا يسير معنا الطريق كله، ولكنه يسير نصف الطريق، يقرر أن هناك طاقة مجهولة في الإنسان يقدر بها على الاستشفاف، ويقرر كذلك أن جهلنا لكنه هذه الطاقة لايعني أنها غير موجودة في الواقع، فهي كذلك موجودة رغم هذا الجهل، وهي حقيقة علمية.. وأهم من ذلك إنه يقرر أننا اعترفنا من قبل بوجود طاقات بشرية أخرى رغم أننا نجهل كنهها تمام الجهل، كعملية الإدراك وعملية التذكر.

وذلك نصف الطريق، فهكسلي يقصر هذه القدرة على الاستشفاف، ثم يقصرها على (بعض) الناس فقط، ولايجعلها طاقة (بشرية) أصلية، ولكن حيث ينظر الإنسان إلى الاتجاه المادي الغارق في المادية، الذي يسيطر على تفكير الغرب ومشاعره، يجد أن هذا الاعتراف من رجل لايؤمن بالعقيدة، يعد في الواقع تقدماً كبيراً نحو الفهم الصحيح للإنسان، الفهم الذي قررته العقيدة منذ أقدم الأزمان.

الروح طاقة مجهولة .. مبهمة غامضة، محجوبة عن الإدراك، ومع ذلك فهي حقيقة، وإذا كنا نظن أن عملية الإدراك أو عملية الذكر عملية (محسوسة)، ومن أجل ذلك نؤمن بوجودها الواقعي، فنحن مخطئون في هذا الظن، فهي في الحقيقة ليست محسوسة في ذاتها، وإنما نحن ندرك نتائجها، ووضوح الإحساس بنتائجها هو الذي أغرانا بذلك الظن الخاطئ، كما أنه هو الذي أدخل في وهمنا أننا (نعرف) كيف يتم

الإدراك وكيف يتم الذكر، أما الحقيقة فهي أننا لانعرف كنه هذه العملية ولا تلك، ونكتفي منهما بالنتائج التي تدركها الحواس.

ولو تدبرنا الأمر لوجدنا الطاقة الروحية كذلك.

إنها مجهولة في كنهها، مبهمة، غامضة، محجوبة عن الإدراك، ولكن نتائجها ليست مجهولة، ولا محجوبة عن الإدراك.

ونحن لو حاولنا أن نعرف عملية التذكر، فلن نجد إلا لفظة واحدة نشرحها بها، سنقول إنها عملية التذكير، ولو حاولنا أن نعرف عملية الإدراك، فلن نجد إلا اللفظة ذاتها أو ما يرادفها، وسنقول إنها عملية الإدراك.

ولكننا سنقول عن الروح: إنها الطاقة التي يصل بها الإنسان بالمجهول، بالغيب المحجوب عن الحواس.

الاستشفاف (عملية) من عمليات الروح

والحلم التنبؤي عملية من عمليات الروح

والتخاطر عن بعد (التلييباتي)

وهي كلها جليلة عظيمة باهرة معجزة.. يقف الإنسان حائر أمامها، مبهوتاً من العجب والإعجاب.

ولكنها مع ذلك عمليات جانبية.. إنما الوظيفة الكبرى للروح هي الاتصال بالله، كيف يتم الاتصال؟ والاستشفاف. والحلم التنبؤي؟ لاندري، كما أننا لاندري كيف يتم الإدراك والتذكر.. ولكنه يتم على اي حال.

الروح.. تلك الطاقة المجهولة التي لانعرف كنهها ولا طريقة عملها.. هو وسيلتنا للاتصال بالله.

وهي مهتدية الى الله بفطرتها، إنها من روح الله التي أودعها قبضة الطين: ﴿ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [1]، ومن ثم فهي بذاتها تهتدي الى خالقها، وتتصل به على طريقتها: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [2]، تهتدي إليه كما يهتدي كل شيء من خلق الله بفطرته، دون كد ولا تعب ولا جهد

---

(١) سورة الحجر الآية: ٢٩.

(٢) سورة الأعراف الآية: ١٧٢.

من الاهتداء: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ (١)، كل مافي الأمر أن الله قد كرم هذا المخلوق البشري: ﴿ وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ﴾ (٢)، ومن آيات هذا التكريم أن جعل للإنسان فؤاداً واعياً: ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ ﴾ (٣)، فجعل عملية الهدي عملية واعية يشترك فيها الفؤاد البصير، فتفترق بذلك عن الطاقة التي يمارسها الجماد والنبات والحيوان.

ومع ذلك فالإنسان يضل.. يضل حين تنحرف فطرته ويصيبها المرض: يضل فلا يهتدي الى الله، ولايصل بروحه إليه، ولا يستمد منه، ولا يلجأ إلى حماه.

على أنه حتى حين يضل، حين تتغبش، روحه فلا تستطيع أن تشف، حيث يغشاها ركام الشهوات فيحجب عنها النور.. حتى حينئذ تظل بقية من الفطرة – برغم ضلالته- تتجه الى خالقها، كما تتجه العين الكليلة الى الضوء لا تراه كله ولكنه لاتعمى عنه، فيعبد الناس الله ويشركون به غيره من الكائنات ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ (٤)، ﴿ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ (٥)، او يعبدون قوة -ما – يزعمون أنها الله، ولكنه – فيما عدا الشذوذ الذي لايحسب له حساب- لا ينكرون وجود خالق لهذا الكون قوي مسيطر مريد.

ومهمة العقيدة هي مساندة الفطرة وتوجيهها، مهمتها أن تساعد الفطرة في الاهتداء الى الله.. والاهتداء الذي هو كامن في كيانها ولو حجبتها عنه الأمراض، مهمتها أن تطلق الروح من إسارها.. لكي تضبط حياتها وسلوكها وفق هدي الله، والإسلام يعني عناية خاصة بالروح إنها في هديه مركز الكيان البشري ونقطة ارتكازه، إنها القاعدة التي يستند إليها الكيان كله ويترابط عن طريقها كما إنها المهمين الأكبر على حياة الإنسان، إنها الموجه الى النور، يكفي أنها صلة الإنسان بالله.

---

(١) سورة طه الآية:٥٠.
(٢) سورة الاسراء الآية: ٧٠.
(٣) سور السجدة الآية: ٩.
(٤) سورة الزمر الآية: ٣.
(٥) سورة الزمر الآية: ٣٨.

والإسلام – في عنايته الفائقة بتربية الروح- هو دين الفطرة، فالحق أن الطاقة الروحية في الإنسان هي أكبر طاقاته وأعظمها، وأشدها اتصالاً بحقائق الوجود، طاقة الجسم محدودة بكيانه المادي وبما تدركه الحواس، وطاقة العقل أكثر طلاقة، ولكنها محدودة بما يعقل، محدودة بالزمان والمكان، بالبدء والنهاية، ومحكومة بالفناء.

وطاقة الروح- وحدها- في كيان الإنسان هي القادرة على أن تجعل منه إنساناً يتميز بروحه عن مستوى غيره من المخلوقات، وهي وحدها التي تملك الاتصال بالخلود الأبدي والوجود الأزلي، وتملك القدرة على تقبل كمالات الوحي الإلهي وضبط العلاقات الإنسانية وفق مراد الله.

كيف؟ لانعلم، لكنا نحسن، نحسن بإشراقة الروح الصافية التي تشمل الحياة كلها فهي ومضة، وتشمل الآباد والآماد، نحس بسبحة الروح الطليقة التي تجوب آفاق الكون وتتصل بكل حي فيه، والكون كما يقول العلم كله حياة، تحسب بتلك اللحظة الدقيقة العجيبة العظيمة الرائعة، التي يرتعش فيها الكيان كله، ويحب في أعماقه أنه يرى الله.

لقد كان طبيعياً إذن أن تهتم العقائد كلها بأمر هذه الروح، وكان طبيعيا أن يهتم الإسلام خاصة بهذه الطاقة، وهو الذي جعل منهجه الاهتمام بالطاقات البشرية كلها، وأعطاها حقها من الرعاية والتوجيه.

طريقة الإسلام في تربية الروح هي أن يعقد صلة دائمة بينها وبين الله، في كل لحظة وكل عمل وكل فكرة وكل شعور ليذجو المجتمع من المآثم والانحراف، إن الإنسان – بطبيعته- قد تشرق روحه لحظة قد تأخذ بلبه الليلة المقمرة، فينتشي بشعرها المهوس، وأطيافها الراقصة، وظلالها المسحورة، قد تأخذه ضخامة الكون وانتظام سننه ودقة نظامه.

قد تروعه حادثة مفاجئة فتهز نفسه وتوقظه لعالم الغيب ومدبر الأمور.. وكل ذلك جميل، ولكنها لحظات منقطعة لا دوام لها ولا استقرار، لحظات خاطفة لا تلبث – بزوال مؤثرها- أن تزول، والإسلام لا يريد ذلك، لا يريد لهذه الاشراقة الروحية أن تنطفئ، لا يريد لها أن تخنس وتخبو، لا يريد أن يغشى صفاءها شيء أو يحجبها عن انطلاقها في الآفاق، ومن ثم لا يكتفي بتلك اللحظات الفائقة التي تجيء عرضاً ولا تلبث أن تزول، لا تكاد تترك لها أثراً في النفس، ولا تسيرها على منهج واضح أصيل.

إنما يريد الإسلام أن يجعل هذه الاشراقة منهج حياة، يريد أن يذكي الشعلة المقدسة فتظل على الدوام مضيئة، يريد أن تظل القبسة اتي يشتمل عليها الإنسان من روح الله مشعشعة وأصلة لنبعها الأصيل.

يريد ألا تكون الطلاقة فلتة عابرة، وغنما تكون هي الأصل، والقعود عنها هي الفلتات، وحين يصنع الإنسان ذلك فهو لا شك يحقق أرفع ما في كيانه، ويصل الى صدق العبودية لله تعالى، ومع ذلك ففي الإسلام تتجلى رحمة الله بعباده.ز إنه لايريدها على المستحيل وهو يعمل ان الطلاقة الدائمة الكاملة بالنسبة للبشر مستحيل فقبضة الطين لها (ثقلة، ودفعة الشهوة لها قوة، وقلة المادة لها ضغط، ومن ثم يكون ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [1]، ويقول: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [2].

ولكنه لا يقول- كما تقو المذاهب الواقعية المنحرفة، المذاهب التي تؤمن بحيوانية الإنسان وماديته [3] لايقول: أيها البشر، ما دامت فيكم ثلة الطين ودفعة الشهوات وضغط المادة، فلا فائدة من رفعتكم، ولا أمل في اطلاقكم، فاجثموا حيث أنتم على الأرض، كلو وتمتعوا كما يتمتع الحيوان.

كلا، لايقول ذلك، لأنه – وهو دين الفطرة يؤمن بكل ما تحتويه الفطرة من طاقات، ويؤمن بطاقة الروح وقدرتها الفائقة على التحليق والانطلاق، وهو – في واقعيته الكاملة التي تحسب حساب الضعف البشري- لايكف أبداً عن المحاولة، لا يكف عن النفخ الدائم لإذكاء شعلة الروح، لأن هذا هو الطريق الوحيد للرفعة، والطريق الوحيد لموازنة مايخبط بالنفس من أثقال وما قد تقع فيه من انحراف.

---

(١) سورة التغابن الآية: ١٦.
(٢) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.
(٣) انظر محمد قطب، معركة التقاليد: فصل (حقائق وأباطيل).

خاصية التوازن التربوي

إذا نظرنا غلى بعض خواص النظام التربوي والأخلاقي في الإسلام نجد ان النظام الأخلاقي الإسلامي يجمع القانون الأخلاقي كله ويتسع نطاق الأخلاق فيه ليشمل الخلاق النظرية والخلاق العملية وما يدخل تحت الأخلاق العملية من أخلاق فردية، وأخلاق أسرية، وأخلاق اجتماعية، وأخلاق اقتصادية، وأخلاق سياسية، وأخلاق علمية، وغيرها من أنواع الأخلاق العملية.

ولعل أهم مظاهر شمول الأخلاق الإسلامية التي تستحق منا أن نقف عندها قليلاً ونورد بعض الشواهد الدالة عليها من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة هو المظهر المتعلق بشمول هذه الأخلاق لعلاقة الإنسان بالحيوان.

فالاسلام يطالب المسلم بالتمسك بالفضائل الأخلاق من إحسان ورحمة ورفق وشفقة وغيرها حتى مع الحيوان الأعجم، وبذلك سبقت الدعوة الإسلامية بقرون طويلة ماتنادي به جمعيات الرفق بالحيوان الحديثة التي نلاحظ وجودها في بعض البلدان الغربية.

فالقرآن الكريم يحمل الدعوة الى احترام وتقدير قيمة الحياة حتى لو كانت في الحيوان لأن فضل تخير الإنسان على الحيوان جاء بمنحة وهبة من الله الخالق، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ (١)

وفي الحديث الذبوي الشريف: أن الله كتب الاحسان على كل شيء، وحتى البهيمة تدخل في ذلك، لما ثبت أن النبي (صلى الله عليه وسلم) سئل عن سقيها فقال: (في كل كبد رطبة صدقة)، وأخبر أن بغياً سقت كلباً يلهث من شدة العطش، فشكر الله لها، فغفر لها.

والرحمة الإسلامية، رحمة جماعية، تعم ولا تخص، تبسط جناحيها على الكون كله، على البار والفاجر، والمؤمن والكافر، والإنسان والحيوان، لقد قال بعض الصحابة للنبي(صلى الله عليه وسلم): لقد أكثرت يارسول الله من الرحمة، وإنا نرحم أزواجنا وأولادنا، فقال الرسول الرحيم: (ما هذا أريد، إنما أريد الرحمة بالكافة)(٢).

وعن النبي(صلى الله عليه وسلم) أيضاً: (إنه مر على قوم وهم وقوف على دواب لهم ورواحل، فقال لهم: اركبوها سالمة ودعوها سالمة).

---

(١) سورة الأنعام الآية: ٢٨.

(٢) احمد البسيوني، الإسلام والعلاقات الاجتماعية، مجلة الوعي الإسلامي، العدد: ١٢٠، ديسمبر ١٩٧٤، ص: ٤-٩.

ونظرة متأنية لأبعاد الأخلاق في الإسلام يتضح لنا أنها تمتاز بتوازنها وتقديرها لمختلف الحاجات الإنسانية ولجميع مطالب الحياة، فهي تقدر الطبيعة الإنسانية المكونة من جسم وروح، وتأخذ في الاعتبار مطالب الجسم والروح، ومطالب الدنيا والاخرة، ويمكن القول وبغير تجاوز أن الأخلاق الإسلامية لاتضحي بالجسم في سبيل الروح ولا بالقيم المادية في سبيل القيم الروحية، بل تعطي كل جانب حقه من الرعاية، وتضعه في المكان الذي يجب أن يوضع فيه بلا إفراط ولاتفريط، فالاسلام بتعاليمه وقيمه وأخلاقه يعالج الإنسان معالجة كلية مطالبه المادية ومطالبه المعنوية.

فمثلاً لا يأمر الإسلام بالزهد البالغ في الدنيا، او بالرهبانية بل أن الله تعالى صخر لنا مافي السموات وما في الأرض، ويعجب ممن حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق، ويأمر السعي والعمل في هذه الحياة بكل طريق شريف.

يقول سبحانه في شأن هذا التوازن: (﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ ﴾ (١).

ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ (٢).

ويقول: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ (٣).

ويقـــول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٤).

وتؤكد السنة النبوية الشريفة هذا التوازن في أكثر من حديث، فمن ذلك قوله (صلى الله عليه وسلم): (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً)، وقوله أيضاً: (ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة، ولا الآخرة للدنيا، ولكن خيركم من أخذ من هذه و هذه..) وقوله: لا رهبانية في الإسلام)، وقوله (صلى الله عليه و سلم) أيضاً في رواية أخرى: (خيركم من لم يترك آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته، ولم يكن كلا على الناس).

والإسلام بهذا التوازن والتكامل بين مطالب الجسم ومطالب الروح، و بين مطالب الدنيا ومطالب الآخرة سلم من الازدواج والتنافر بين هذين النوعين من المطالب اللذين نلحظها في معظم النزعات الفلسفية والمذاهب المادية الوضعية التي اتجهت اتجاهاً مادياً، والمذاهب الروحية والنزعات الصوفية المتطرفة التي اتجهت اتجاهاً روحياً لدرجة التطرف لدى بعضها أو تعطيل كل أسباب الحياة الكريمة والأخذ بسنن الله تعالى في الخلق.

غاية الأخلاق في الإسلام

(١) سورة القصص الآية: ٧٧.
(٢) سورة البقرة الآية: ١٧٢.
(٣) سورة الأعراف الآية: ٣٢.
(٤) سور المائدة: الآية ٨٧.

التوازن التربوي الأخلاقي الذي أشرنا الى أهم سماته ومعالمه في المنهج الإسلامي يستهدف تحقيق مطالب الإنسان الأسمى وهو تحقيق سعادة الدارين والكمال النفسي للفرد وتحقيق السعادة والتقدم والقوة والمنعة للمجتمع.

فالدين الإسلامي أو الأخلاق الإسلامية لاتقتصر غايتها على تحقيق السعادة الأخروية المتمثلة في الفوز برضا الله ورحمته وغفرانه ومثوبته والفوز بالنعيم الأخروي الذي وعد الله به الأبرار والمتقين من عباده والذي أشارت إليه كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث الذبي العظيم من أمثل قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ [1]، وقوله (صلى الله عليه وسلم): (هناك ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر)، بل تتعدى تلك الغاية هذه السعادة الأخروية المحضة الى تحقيق السعادة الدنيوية المشروعة التي توصل الى السعادة الأخروية.

ويدخل تحت السعادة الدنيوية – بالنسبة للفرد- الخيرات البدنية المختلفة من صحة وقوة وجمال وطول للعمر وغيرها، والخيرات التي من أبرزها: المال، والأهل، والعز، وكرم الأرومة، والخيرات النفسية المتمثلة في الفضائل الأربعة الكبرى التي هي: الحكمة، الشجاعة، العفة، والعدالة ومايدخل تحتها من فضائل فرعية أو جزئية، والخيرات التوفيقية المتمثلة في هداية الله، ورشده، وتسديده، وتأييده.[2]

ومما يدخل تحت السعادة الدنيوية بالنسبة للمجتمع قوة المجتمع، ومنعته، وتقدمه المستمر وتماسكه، واستقراره، وتعاون افراده، وتضامنهم، وإخلاصهم في أعمالهم، وتقديرهم لمسؤولياتهم تجاه مجتمعهم، واستقامتهم، ووعيهم بمشاكل مجتمعهم، وما الى ذلك من مظاهر سعادة المجتمع.

هذا وقد قسم بعض العلماء السعادة الى أقسام ومراتب، فها هو (ابن مسكوية) ينقل عن (ارسطو) تقسيم السعادة الى خمسة أقسام، فيقول:

(فأما أقسام السعادة على مذهب هذا الحكيم (أي ارسطو)، فهي خمسة أقسام:

أحدهما في صحة البدن ولطف الحواس، ويكون ذلك من اعتدال المزاج، أعني أن يكون جيد السمع والبصر والشم والذوق واللمس.

والثاني: الثورة والأعوان وأشباهها حتى يتسع لأن يضع المال في موضعه، ويعمل به سائر الخيرات، ويواسي منه أهل الخير خاصة، والمستحقين عامة، ويعمل به كل مايزيد في فضائله ويستحق الثناء والمدح عليه.

---

(١) سورة السجدة الآية: ١٧.

(٢) ابوحامد الغزالي، ميزان العمل، (تحقيق: د. سليمان دنيا)، القاهرة: دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص: ٢٨٧-٣٣٠.

والثالث أن تحسن أحدوثته في الناس وينشر ذكره بين أهل الفضل فيكون ممدوحاً بينهم، يكثرون الثناء عليه لما يتصرف فيه من الإحسان والمعروف.

والرابع أن يكون منجحاً في الأمور، وذلك إذا استتم كل ما روي فيه وعزم عليه حتى يصير الى ما يأمله منه

والخامس أن يكون جيد الرأي، وصحيح الفكر، سليم الاعتقادات في دينه.. بريئاً من الخطأ والزلل، جيد المشورة في الآراء، فمن اجتمعت له هذه الأقسام كلها فهو السعيد الكامل على مذهب هذا الرجل الفاضل، ومن حصل له بعضها كان حظه من السعادة بحسب ذلك.. (وقد كان أرسطو) ممن رأوا أن السعادة الإنسانية تحصل للإنسان في الدنيا إذا سعي لها وتعب بها حتى يصير الى أقصاها..) [1]

وللسعادة عند (ابن مسكوية) مرتبتان تتمشيان مع الطبيعة البشرية للإنسان المكونة من جسم ونفس، هاتان المرتبتان، هما السعادة البدنية والسعادة الروحية، والأولى أدى مرتبة من الثانية.

(فما دام الإنسان إنساناً فليس تتم له السعادة إلا بتحصيل الحالين جميعاً، وليس يحصلان على التمام إلا بالأشياء النافعة في الوصول الى الحكمة الأبدية، فالسعيد إذن من الناس يكون في إحدى مرتبتين: غما أن يكون في رتبة الأشياء الجسمانية متعلقا بأحوالها السفلى سعيداً بها، وهو مع ذلك يطالع الأمور الشريفة باحثاً عنها مشتاقاً إليها متحركاً نحوها مغتبطاً بها.

وإما أن يكون في رتبة الأشياء الروحانية متعلقاً بأحوالها العليا سعيداً بها، وهو مع ذلك يطالع الأمور الدنيئة معتبراً بها، ناظراً في علامات القدرة الإلهية ودلائل الحكمة البالغة، مقتدياً بها، ناظما لها، مفيضاً للخيرات عليها، سائقاً لها نحو الأفضل، فالأفضل بحسب قبولها وعلى نحو استطاعتها.

وإذا قد تبين أن السعيد لا محالة في إحدى المرتبتين اللتين ذكرناهما، فقد تبين أيضاً أن أحدهما ناقص مقصر عن الاخر وأن الأنقص منهما ليس يخلو ولا يتعرى من الآلام والحسرات، لأجل الخدع الطبيعية والزخارف الحسية التي تعرضه فيما يلابسه فتعوقه عما يلاحظه وتمنعه من الترقي فيها على ماينبغي وتشغله بما يتعلق به من الأمور الجسمانية، فصاحب هذه الرتبة غير كامل على الإطلاق ولا سعيد تام.

وأن صاحب الرتبة الأخرى هو السعيد التام، وهو الذي توفر حظه من الحكمة فهو مقيم بروحانيته بني الملأ الأعلى، يستمد منهم لطائف الحكمة ويستنير بالنور الإلهي، ويستزيد من فضائله بحسب عنايته بها وقلة عوائقه عنها ولذلك يكون أبداً من

---

(١) أبو علي أحمد بن محمد مسكوية، تهذيب الأخلاق (تحقيق: د. قسطنطين زريق) بيروت: الجامعة الأمريكية ببيروت، ١٩٦٦، ص: ٧٩-٨٢.

الآلام والحسرات التي لايخلو صاحب الرتبة الأولى منها، ويكون مسروراً أبداً بذاته مغتبطاً بما له وبما يحصل له دائماً من فيض نور الأول.. و هذه هي الرتبة التي من وصل إليها فقد وصل إلى آخر السعادات وأقصاها، وهو الذي لايبالي بفراق الأحباب من أهل الدنيا ولا يخسر على مايفوته من التنعم فيها.

و هو الذي يشتاق إلى صحبة أشكاله وملاقاة من يناسبه من الأرواح الطيبة والملائكة المقربين، وهو الذي يفعل إلا ما أراد الله منه، ولا يحتار إلا ما قرب إليه، ولا يخالفه الى شيء من هواه وشهواته الرديئة، ولاينخدع بخدائع الطبيعة ولايلتفت الى شيء يعوقه عن سعادته) [١]

وعلى هذا الأساس أو قريب منه ذهب كثير من الفلاسفة في تقسيمهم السعادة التي اعتبروها جميعاً هدفاً رئيسياً للأخلاق، فذهب الغزالي- مثلاً- الى تقسيم السعادة الدنيوية الى أربعة اقسام أو أنواع رئيسية: هي خيرات البدن وخيرات النفس، والخيرات الخارجية، والخيرات التوفيقية، ويدخل تحت كل قسم أو نوع من هذبه الأنواع أربعة خيرات أو فضائل أساسية مما يجعل السعادة عند الغزالي وعند من سار على نهجه من المتصوفة الخير الأعلى، لأن هذا الخير الأعلى – عند الغزالي بالذات- (هو السعادة الأخروية التي هي بقاء لا فناء له، وسرور لا غم فيه، وعلم لاجهل معه، وغنى لا فقر يخالطه. و هذه هي السعادة الحقيقية، وما عدا ذلك مما تعارف الناس على تسميته سعادة، فيسمى كذلك خطأ أو بنحو من التجوز، الأول علذات هذه الحياة ومسراتها التي لاتعين على الاخرة، والثاني مثل ما يوصل للسعادة الأخروية من سعادات الحياة التي نعيش فيها.

وهذه السعادة الحقيقية (أو الخير الأعلى) قد تكون في الدنيا على سبيل الندور لمن سلك إليها طريقها وجعل نفسه أهلاً لدرك هذه الحقائق العالية فتفيض عليه من الله كما فاضت على الأنبياء والأولياء والصديقين، (ففيضان هذه الرحمة من الله عز وجل على النفس غاية المطلوب، وهو عين السعادة التي للنفس بعد الموت).

وتهذيب النفس وتحليتها بالفضيلة خطوة ضرورية لتحقيق السعادة، فالسعادة الحقيقية ليست في اللذات الحسية حتى ما كان منها في الجنان، ولكنها معنوية تتجلى في معرفة الحقائق الإلهية وهداية الله ورشده وتسديده وتأييده.[٢]

وقد تابع الإمام الغزالي في جعله السعادة هدفاً أساسياً للأخلاق وفي تفسيره لمفهوم السعادة على النحو الذي ذكرنا- كثير من علماء الإسلام الذين تناولوا

---

(١) نفس المرجع السابق، ص: ٨٣-٨٦.

(٢) د. محمد يوسف مرسي، فلسفة الأخلاق في الإسلام وصلاتها بالفلسفة الإغريقية (الطبعة الثانية)القاهرة: مطبعة الرسالة، ١٩٤٥، ص: ١٥٧-١٧٣، ٢٧٢-٢٧٣.

موضوع الأخلاق بالدراسة والبحث من بعده، حتى وقتنا الحاضر تقريباً، ولم يخالف المنهج الذي سار عليه ابن مسكويه والغزالي في دراسة الأخلاق وفي تحديد الغاية من هذه الأخلاق في الإسلام إلا بعض علماء المسلمين المحدثين الذين ثاروا على منهج ابن مسكويه والغزالي في دراسة الأخلاق وفي تفسير مفهوم السعادة ورأوا في منهج ابن مسكويه والغزالي وغيرهما ممن ساروا على نهجهما تقليداً واضحاً للفلسفات اليونانية ولبعض الديانات القديمة أو انحرافاً نحو المفاهيم الصوفية الجبرية، وبعداً واضحاً عن المفهوم الحقيقي البسيط للأخلاق الإسلامية المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

ومن هؤلاء العلماء المسلمين المحدثين الذين حاولوا الابتعاد عن أفكار ابن مسكويه والغزالي وغيرهما من الفلاسفة المسلمين المتأثرين بالفلسفة اليونانية والنزعات الصوفية الغريبة عن روح الإسلام الدكتور محمد عبدالله دراز، والدكتور أحمد فؤاد الأهواني، والأستاذ أنور الجندي، والدكتور عبدالحليم محمود.

وفي ضوء هذه النبذة التي تدور حول مفهوم السعادة عن بعض المفكرين نود أن نقرر أن العلماء حاولوا أن يجعلوا للأخلاق الإسلامية شخصيتها المتميزة المستمدة أساساً من القرآن والسنة النبوية والمختلفة اختلافاً جوهرياً عن الأخلاق الفلسفية والأخلاق المستمدة من الديانات والنظم الأخرى غير الإسلام.

وقد ضمن الدكتور محمد عبدالله دراز معظم أفكاره الأخلاقية في بحثه القيم الذي تقدم به لنيل درجة دكتوراه الدولة من السربون في عام ١٩٤٧ والذي كان بعنوان: (دستور الأخلاق في القرآن: دراسة مقارنة للأخلاق النظرية في القرآن).

هذا وقد حاول الأستاذ أنور الجندي – في إطار نقده لأفكار ابن مسكويه والغزالي في مجال علم الأخلاق وتحديده للمفهوم المناسب للأخلاق الإسلامية وللغاية منها – أن يلخص لنا ابرز الفوارق الدقيقة العميقة بين الأخلاق الإسلامية والأخلاق الفلسفية في أصول اربعة عامة أساسية، هي كالآتي:

أولاً: الأخلاق الإسلامية تقوم على مبدأ التقوى، أي على تجنب الحرام والإقبال على الحلال، وليس في الإسلام مايسمى (السعادة) التي هي هدف الأخلاق عند اليونانيين، ولذلك فإن كل ما ذكره الباحثون عن مفهوم السعادة الأخلاقية لا صلة له بمفهوم الإسلام الأخلاقي ولا يمثله من قريب أو بعيد، وإنما هي أقوال ارسطوا وآراء اليونان.

ثانياً: اخلال القرآن: أخلاق اجتماعية فردية، فالقرآن ينظر الى الفرد في ضوء المجتمع، فإذا تعارضت المصلحتان ضحى الفرد بنفسه في سبيل المجتمع

ثالثاً: ربط الإسلام بين الأخلاق والدين برباط عضوي، مما جعل الأخلاق قاسماً مشتركاً على جميع قضايا الاجتماع والسياسة والاقتصاد والتربية.

رابعاً: ما كتبه الفلاسفة عن الأخلاق لايمثل ذاتية الإسلام ولا مفهوم القرآن، فهو أما ناقص، او مستمد من الفلسفات اليونانية أو منحرف ناحية المفاهيم الصوفية الجبرية.

وهنا لابد من التنويه والتذكير بأن الإيمان بالله تعالى وما يترتب عليه من التزام بهدي الكتاب والسنة هو أهم مصادر الأخلاق الإسلامية وأهم العوامل المؤثرة في نمو هذه الأخلاق وفي تشكيلها وإعطائها الطابع الإسلامي المميز لها، وأهم مصادر ما تحتويه من مبادئ وقواعد ومثل وقيم خلقية، وأهم مصادر ما تحتوه من مبادئ وقواعد ومثل وقيم خلقية، وأهم مصادر الإلزام الخلقي والضمير أو الوازع الخلقي، وأهم مصادر التحسين والتقبيح اللذين يتضمن أحدهما حكمنا الخلقي على فعل من الأفعال الإنسانية وخير المصادر التي نستمد منها مقاييسنا الخلقية ونبني عليها أحكامنا الخلقية.

فالمسلم – بهدي من دينه- يربط الأخلاق بالدين برباط وثيق، ويعتبر الأخلاق جزءاً لايتجزأ من الدين حتى أنهما ينتهيان في النهاية عنده الى شيء واحد تقريباً وينظر الى الدين على أنه إيمان وعمل، وعقيدة وعبادة، وأخلاق، فالمسلم الواعي يفهم الدين على أنه جامع لكل (مايدخل في باب العقيدة، وما يدخل في باب العمل: العمل الذي يؤديه المرء تقرباً الى الله كالصلاة والزكاة، والعمل الذي يقوم به مع غيره تحقيقاً للمصالح الدنيوية المختلفة كالبيوع والرهون والشركات وغيرها من التصرفات، وأعمال السلوك الخلقي مع النفس ومع الناس).

والتفرقة بين الدين، والأخلاق، والشريعة، لاتعدو أن تكون طريقة لتنظيم العلوم والبحوث، ولكنها جميعاً لاتخرج عن دائرة الدين، ومن ثم فإنه (ليس لمسلم أن يقول: دع مالقيصر لقيصر وما لله لله، بمعنى ان الدين علاقة بين المرء وربه، وأن هذا هو مجال التشريع السماوي، أما علاقة الإنسان بالإنسان وما تحتاج إليه من تشريع مدني أو جنائي فيجب أن يترك للحاكم، لاينبغي لمسلم أن يقول ذلك، لأن الذي قال: (﴿ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ﴾) [1]، وهو الذي قال: ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [2] وهو الذي قال: (﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

---

(١) سورة البقرة الآية: ٤٢.
(٢) سورة البقرة الآية: ١٧٩.

﴿يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (١) (٢)

ويظهر ارتباط الأخلاق بالدين وتلازمها معه من التعريفات الكثيرة التي ذكرت للدين نفسه والتي من بينها التعريف الذي أتى به الدكتور محمد عبدالله دراز، فالدكتور دراز يعرف الدين بأنه: (وضع الهي يرشد الى الحق في الاعتقادات والى الخير في السلوك والمعاملات)(٣)، ولعلنا إذا ما دققنا النظر في هذا لتعريف فإذنا نجد فيه ما يؤكد أن أول ما يرشد إليه الدين – بعد الإيمان بالله ورسله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وقضائه وقدره- هو الخلق الحسن الذي يمثل الخير في السلوك والمعاملة، بحيث يصبح المذبع الأصلي لفضائل السلوك ومكارم الأخلاق، لا في أصولها وأمهاتها الكلية العامة فحسب بل كذلك بالنسبة للفضائل الفرعية والجزئية المتطورة المتجددة، لأن هذه الفضائل الجزئية تخضع في النهاية الى تقويم الدين ومباركته، فما وافق منها روح الدين وأصوله وقواعده العامة قبله المسلمون واعتبروه جزءاً من نظامهم الخلقي، وما خالف روح الدين وأصوله نبذوه واعتبروه فرعاً من فروع الرذائل التي نهى عنها الدين.

فالدين والخلق حسب التعريف السابق وحسب ما هما عليه في واقع الأمر ملتحمان تمام الالتحام، بحيث لايمكن أن يوجد أخلاقي في سلوكه المتوازن والمرتبط بالفطرة الإنسانية إلا وهو متدين، فالمسلم لايتصور من ملحد او تارك للصلاة –مثلاً- أن يكون أخلاقياً يعتد بأخلاقه ويطمأن له، وعلى الأخص في مواقف الشدة والحرج.

وكذلك الدين- كما قدمنا- هو إيمان وعمل وعقيدة وعبادة وأخلاق، وكما أنه لايعتبر متخلقاً بالأخلاق الحسنة من ضعفت عقيدته وقل عمله بمقتضى تعاليم الدين، فإنه لايعتبر (ولايسمى متديناً تديناً حقيقياً من يقوم بالطقوس الدينية وليس على خلق عظيم بالفعل، بل هو في نظر الاسلام مراء ومنافق)، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ (٤) .

---

(١) سورة النساء الآية: ٦٥.
(٢) علي حسب الله، في الموسم الثقافي لجامعة الكويت، للعامالجامعي ١٩٦٩/٦٨، ص: ١٤٩.
(٣) د. محمد عبدالله دراز، الدين، الكويت، دار القلم، ١٩٧٢، ص: ٣٣.
(٤) سورة العنكبوت الآية: ٤٥.

وإذ يقـــــول: (﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ الَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴿٧﴾ ﴾) [١].

ولكن هذا الارتباط الوثيق بين الدين والخلق لا يعني أنهما متردفان في المعنى، بل لكل من الكلمتين معناها المستقل، (فإذا نظرنا الى الدين من حيث هو معرفة (الحق) الأعلى وتوفيره، والى الخلق من حيث هو قوة النزوع الى فعل (الخير) وضبط النفس عن الهوى، كانت أمامنا حقيقتان مستقلتان يمكن تصور أحداهما بدون الأخرى، فتختص أولاهما بالفضيلة النظرية والأخرى بالفضيلة العملية..) [٢]، (وإذا قلنا أن فلانا ذو دين وخلق، وجب – لكي تخلو العبارة من عيب التكرار واللغو- أن تؤدي كلا الكلمتين معنى مستقلاً بحيث يختص الدين بالجانب الإلهي، والخلق بالجانب الإنساني فيكون معنى الدين الإيمان أو التقوى الخاصة، أعني القيام بفرائض العبادة، ويكون معنى الخلق التحلي بالفضائل والآداب الاجتماعية)[٣].

خاصية الاعتدال

هذا ويرتبط بخاصية الاعتدال عدم العلو في أي اتجاه من الاتجاهات والنظرة الى الأمور نظرة وسط، من غير إفراط ولاتفريط، فأخلاق الإسلام وشريعته هي أخلاق توجب على الإنسان أن يعيش في هذه الحياة متوسطاً بين طرفي الإفراط والتفريط، فهو لايقسو على نفسه قسوة تجعله سلبياً في الحياة، ولا يعطي نفسه أكثر من حقها في التمتع، حتى لايصير حيواناً من الحيوانات ولهذا يقول الله تعالى: ﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾ [٤].

ويقـول أيضـاً: ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ ۖ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [٥].

وخير وصف وصفت به الأمة المؤمنة الربانية هو أنها أمة (وسط) لاتسرف في أمرها، ولاتشح أو تبخل أو تمنع حين يجب الإعطاء، أو يحسن البذل، والله تعالى

---

(١) سورة الماعون الآيات: ٤-٧.
(٢) نفس المرجع السابق، ص: ٥٦-٥٧.
(٣) نفس المرجع السابق، ص: ٥٩.
(٤) سورة الأعراف: الآية: ٣١.
(٥) سورة الاسراء الآيتان: ٢٦-٢٧.

يقـول: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ (١)

ولهذه الآيات وغيرها، اعتبر فلاسفة الأخلاق في الإسلام من أمثال ابن مسكويه والغزالي وغيرهما الفضيلة وسطاً بين رذيلتين، هما: الإفراط والتفريط وتبعاً لهذه القاعدة المستمدة من شريعة الإسلام وأخلاقه والمتمشية مع الفطرة السليمة، فإن ليس المطلوب من المربي قمع الغرائز والنزعات الفطرية أو كبتها، وإنما المطلوب منه تهذيبها وتعديلها بحيث تسير في طريق وسط بين (الإفراط والتفريط)، وأي انحراف خطير على هذه القاعدة لن يترتب عليه، إلا التعقد والسلبية الاجتماعية أو التحلل الخلقي – بالنسبة للفرد- والضعف والتأخير والتخلف والتزمت والجمود وانحلال الأخلاق والروابط الاجتماعية بالنسبة للمجتمع. (٢)

ولهذا فإنه من واجبنا- نحن المسلمين- على مستوى المجتمع والأمة- كما يقول الدكتور محمد عبده يماني: (ان نصحح مفهوم الإسلام في العقول المعاصرة، فإن فترات الضعف التي مرت بالمسلمين جعلتهم يتصورون مفهوم الإسلام على أنه نظام كامل للحياة نستطيع أن نوجد للطموحين في ماديات الحياة كنوز دينهم في هذه الحياة، ونعطيهم القيم التي يجب أن تحوط ذلك الطموح المادي.

وحينئذ تصح المعادلة، ونعرف جيداً موقع الإسلام بما سبقه من خلل في المعادلات الإنسانية والدينية، فقد جاء الاسلام وفي العالم يهودية انحرفت عن منهج الله الى عالم المادة الصرفة، حتى غالوا في المادية غلوا جلعهم يطلبون أن يروا الله جهرة، ومسيحية قابلت ذلك بروحانية صرفة لترد هذا الجمود المادي، حتى يمتزج العنصران).

ولكن النزاع بين الدينين جعل كل دين يستقل بمنطلقه، وانفصلت اليهودية عن المسيحية والمسيحية عن اليهودية، فاختلت المعادلة وجاء الإسلام ليصحح للإنسانية المعادلة الضرورية: مادية بقيم وروحانية بحركة وهذا الذي يعينه الحق (في الاية السالفة الذكر) (٣). ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ ﴾.

إذن فالوسطية في الإسلام هي التي تجمع طرفي المعادلة بدون إفراط ولا تفريط، وبذلك يكون الإسلام هو التشريع الإلهي الذي غطى كل متطلبات الملكات

---

(١) سور البقرة الآية: ١٤٣.
(٢) د. أحمد الشرباصي: الدين والمجتمع، القاهرة، المطبعة العربية، ١٩٧٠، ص: ١٨٠.
(٣) د. محمد عبده اليماني، (المعادلة الحرجة في حياة الأمرة الإسلامية وتشريعها اليوم)، جوهر الإسلام، السنة الخامسة، العدد: ٩-١٠، يونيو ويوليو ١٩٧٢، ص: ٩٣-١٠٧.

النفسية، ولم يشرع لملكة واحدة على حساب ملكات أخرى، وبذلك يكون الإنسان سوى التركيب منسق الطاقات، غير متدافع الميول.

ويجب أن لا يغيب عن البال أن منهج اليهودية الذي انحاز بدينه إلى عنصر واحد من عناصر الحياة ليس هو المنهج الإلهي لهذه اليهودية، لأنه لو ظل المنهج الإلهي منهجاً لها لما احتاجت الى النهج المسيحي، وكذلك المسيحية لم تبق كما أنزلها الله، بل طرأ على الديانتين تحريف وتبديل وكتمان، فكان ولابد أن تصحح أخطاء انحراف أهل الأرض، فجاء الإسلام ليجمع منهجه قانون النفس الإنسانية، المتوازنة في ضوء (مادية بقيم، وروحانية بحركة).

ولذلك كان الإسلام منهجاً متكاملاً، ختمت به رسالات الله الى الارض: ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ (١).

هذا ويرتبط بخاصية التوازن خاصية أخرى قريبة في معناها من معنى التوازن والوسطية، هي خاصية الواقعية التي تجعل هي الأخرى الأخلاق الإسلامية متمشية مع إمكانيات الإنسان البشرية ومسايرة بل مطابقة تماما لفطرته السليمة.

ومن مظاهر الواقعية في الأخلاق الإسلامية هو احترام هذه الأخلاق لمطالب الروح والجسد معاً، وعدم تكليفها للإنسان بما يفوق قدرته وإمكانياته أو يتنافى مع فطرته ودوافعه الفطرية، فهي لاتطلب من الإنسان أن يضحي بحاجاته البدنية الضرورية ولا بشهواته المعتدلة، جسمياً وعقلياً، ولا تطلب منه أن يدير خده الأيسر لمن ضربه على خده الأيمن، ولا تدعوه الى الرهبنة أو الزهد القاتل المبالغ فيه، بل على العكس من ذلك نجد هذه الأخلاق والتعاليم الإسلامية عامة تطلب من الإنسان أن يتمتع بها أتاه الله من نعم الدنيا في حدود العقول، وأن لايترك نصيبه من الدنيا، وأن يطلب الرزق ويجد في طلبه طالما كان هذا الطلب بالطرق والوسائل المشروعة، وأن يكون قوياً في الحق يرد على كل من اعتدى عليه بمثل ما اعتدى به عليه.

ويدعم هذه النظرة الواقعية في الأخلاق الإسلامية كثير من آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي العظيم محمد (صلى الله عليه وسلم) فمن هذه الآيات والأحاديث، قوله تعالى: ﴿ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ﴾ (٢).

﴿ وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ (٣)

---

(١) سورة المائدة الآية: ٣.
(٢) سورة البقرة الآية: ١٩٤.
(٣) سورة البقرة الآية: ١٩٠.

﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ (١)

وقوله (صلى الله عليه وسلم) في حق المال: (نعم العون على تقوى الله المال) (٢)

وقوله (صلى الله عليه وسلم) لسعد بن ابي وقاص(صلى الله عليه وسلم) وقد استشاره عما يتصدق به وهو ذو مال كثير: فأجابه (صلى الله عليه وسلم): (بالثلث، والثلث كثير، إنك أن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس).

واستناداً الى مثل هذه الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة جاءت آراء علماء الأخلاق في الإسلام وأقوالهم داعية للعمل والتعاون في هذه الحياة، يقول ابن مسكويه في هذا الصدد: (إنه (أي الانسان) مدني بالطبع، أي محتاج الى ضروب المعاونات التي تتم بالمدينة واجتماع الناس فيها، وهذا الاجتماع للتعاون هو التمدن).

فمن العدل إذن أن نعين الناس بأنفسنا كما أعانونا بأنفهسم، ونبذل لهم عوض ما بذلوا لنا.

فأما من ذهب الى التزهد وحرم المكاسب، فإنه يضطر الى استعمال الجور، لأنه يستنجد الناس لامحالة في ضرورات بدنه، وحاجته الى مايقيمه ويطلب معاونتهم، ثم لايعاونهم، فهذا هو الظلم والعدوان، فإن ظن منهم ظان أن مقدار حاجته قليل، فليعمل أن ذلك القليل يحتاج فيه الى استخدام عالم كثير من الناس لايحصون وإن كان يشعر بذلك.

فمن الواجب على كل أحد يبذل معونته على شريطة العدل، إن عاون كثيراً طالب كثيراً، وإن عاون القليل طلب بالقليل، عنى بالقليل والكثير والكمية، بل الكيفية وحسن الموقع والغناء)(٣).

اليسر وعدم الحرج:

هذا وفي مسلسل التوازن الأخلاقي في الإسلام تجيء خاصية اليسر وعدم الحرج بحيث لايكلف الإنسان في ظلها إلا بما هو في حدود وسعه وطاقته، ولايعتبر مسؤولاً خلقياً وشرعياً إلا اذا كان بكامل ارادته وحريته ووعيه العقلي، والشواهد الدالة على هذه الخاصية من الكتاب والسنة والقواعد الشرعية العامة أكثر من أن يستطيع ذكرها فضلاً عن شرحها والتعليق عليها، وعلى سبيل المثال نرى في

---

(١) سورة الأنفال الآية: ٦٠.

(٢) رواه البخاري.

(٣) أبو علي احمد بن محمد مسكويه، الفوز الأصغر، (تحقيق: د. عبدالفتاح أحمد فؤاد) يذغازي، ليبيا: دار الكتاب الليبي، ١٩٧٤، ص: ٦٤-٦٥.

البرهنة والتدليل على هذه الخاصية المتممة والمكملة الأبعاد التوازن التربوي في الإسلام والمستفاد من: قوله تعالى:

- ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ ﴾[1].
- ﴿ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ ﴾ [2].
- ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾[3].
- ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ﴾ [4].
- ﴿ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ [5].
- ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [6].

---

(١) سورة البقرة الآية: ١٨٥.
(٢) سورة النور الآية: ٦١.
(٣) سورة الحج الآية: ٧٨.
(٤) سورة البقرة الآية: ١٩٥.
(٥) سورة التغابن الآية: ١٦.
(٦) سورة البقرة الآية: ٢٨٦.

- ﴿ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴾ (١).
- (﴿ لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَٰنِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾) (٢)
- وقوله (صلى الله عليه وسلم): (إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا وبشروا).
- وقوله (صلى الله عليه وسلم): (إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى).
- وقوله(صلى الله عليه وسلم): (ذروني ما تركتكم فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه).

وروي عن عائشة رض الله عنها قالت: (ماخير رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بين أمرين إلا اختار أيسرهما، ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله (جل وعلى).

وقد بنيت على تلك الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة كثير من القواعد الشرعية والفقهية تؤكد هي الأخرى مبدأ اليسر ورفع الحرج في الشريعة الإسلامية، وذلك مثل قوله الفقهاء: (الضرورات تبيح المحظورات)، و(المشقة تجلب التيسير)، الى غير ذلك من القواعد الشرعية.

ولكن هذا التيسير الذي اتسمت به الأخلاق والشريعة الإسلامية لايعني التساهل في أمر الدين أو ترك الحبل على الغارب حتى تنتهك حرمات الدين أو يستهان بأحكام الحلال والحرام، فنحن نعلم أن من بين قواعد الشريعة الإسلامية أيضاً – بجانب القواع السابقة لمبدأ التيسير ورفع الحرج- قواعد احتياطية يحفظ التمسك بها من الوقوع في مهاوي الزلل والعصيان ومن الاستهانة بأحكام الحلال والحرام، من هذه القواعد القاعدة الشرعية: (الضرورات تقدر بقدرها)، وقاعد (سد الذرائع) و(اتقاء الشبهات)، الى غير ذلك من القواعد التي بمتقضى الالتزام بها عدم تجاوز حد الضروري وعدم التساهل بمقدمات الحرام، حيث أن كل ما يتوصل به الى الشيء الممنوع المشتمل على مفسدة يكون ممنوعاً، أي أن كل ما كان وسيلة الى المحرم فهو محرم.

---

(١) سورة النساء الآية: ٢٨.
(٢) سور البقرة الآية: ٢٢٥.

فالله سبحانه حرم على المرأة الضرب بالأرجل والكعاب، حتى لايكون ذلك ذريعة الى اجتذاب الأنظار اليها وافتتان الرجل بالمرأة، قال تعالى: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ (١)، وحرم الله على المؤمنين سبب آلهة المشركين من الأصنام والأوثان المزيفة حتى لايكون ذلك ذريعة الى أن يسب المشركون الإله الحق جهلاً وزوراً وعناداً: ﴿ وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ (٢)،.. ونهى عليه الصلاة والسلام أني خطب الرجل على خطبة أخيه وأن يستام على سوم أخيه أو يبتاع على بيعه، سداً لذريعة التباغض والشحناء وإثارة المنازعات .. (وقد) صاغ النبي (صلى الله عليه وسلم) المبدأ الشامل لمثل هذه الحالات بقوله: (دع مايريبك الى مالايريبك) (الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور مشتبهات)، (من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه)،.. (وهكذا يقضي المنطق ويوجب الشرع والواقع أن كل فساد مهمل في المقدمات يستتبع خللاً خطيراً في النتائج وكل ما أفضى الى الحرام فهو حرام، وكل ما ادى الى الشر فهو شر)(٣).

ومن خصائص وسمات الأخلاق والتعاليم الإسلامية أيضاً ربطها الاعتقاد بالعمل والقول بالفعل والنظرية والتطبيق، ولاقيمة لإيمان لايتبعه عمل بمقتضاه، ولم يقل أحد أن الدين أو الأخلاق مجرد أقوال تردد أو شعارات ترفع، بل ارتبط على الدوام المفهوم الصحيح للدين والأخلاق، وقد جاءت آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول العظيم(صلى الله عليه وسلم) وأقوال السلف الصالح من علمائنا المسلمين مؤكدة جميعها لضرورة ربط الايمان والأخلاق بالعمل والمعاملة واعبتار لب الإيمان وشرط ودليل رسوخ الاتجاه الخلقي في النفس.

ومن الآيات القرآنية المؤيدة لهذه الخاصية أو المبدأ المرتبط بها:

قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣ ﴾(٤)

---

(١) سورة النور الآية: ٣١.
(٢) سورة الأنعام الآية: ١٠٨.
(٣) د. وهبة الزحيلي، (عاقبة التساهل بمقدمات الحرام)، مجلة الوعي الإسلامي، السنة العاشرة، العدد: ١١٣، مايو ١٩٧٤، ص: ٣٨-٤٥.
(٤) سورة الصف الآيتان: ٢-٣.

وقوله تعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

وقوله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ (١)

وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ (٢)

ومن الأحاديث النبوية الشريفة المدعمة أيضا لهذا المعنى:

- قوله (صلى الله عليه وسلم): (ليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل، إن قوماً ألهتهم أماني المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وقولوا نحسن الظن بالله وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل).
- وقد سأل جبريل (عليه السلام) النبي (صلى الله عليه وسلم) عن الإيمان قال: فأخبرني عن الإيمان، قال الرسول(صلى الله عليه وسلم) (أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).
- وقال (صلى الله عليه وسلم) (الإيمان أمانة، ولا دين لمن لا أمانة له، وقال: (لايؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه).
- وقال (صلى الله عليه وسلم): (ليس بمؤمن من شبع وجاره جائع).
- وقال (صلى الله عليه وسلم): (أتدرون من المسلم؟ فقالوا: الله ورسوله أعلم، قال: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده)، قالوا: فمن المؤمن؟ قال: (من آمنه المؤمنون على أنفسهم وأموالهم)، قالوا: فمن المهاجر ؟ قال: (من هجر السوء واجتنبه).

وفي ضوء مصادر ومقومات هذا المنهج التربوي يتضح لنا أن المنهج الذي رسمه الإسلام للإنسان هو (منهج عالمي خالد مساير للزمن صالح لكل العصور ومن ثم كان لا بد أن يتوفر له عنصر الثبات حتى لايكون خاضعاً للتغيير والتبديل مع الهوى والشهوات.

وقد تعارفت حضارات في القديم والحديث على آداب السلوك ومفاهيم للأخلاق، أهم مايؤخذ عليها أنها خضعت لمنطق البيئة وتطورت مع تطور الحضارات حتى وصلت في المدينة الحديثة الى التذكر لكل القيم والتحلل من كل القيود فأباحت الكذب والعسف والنفاق والسرقة والغدر في المجال الدولي، كما جعلت

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٨٨.
(٢) سورة الكهف الآية: ١٠٧.

المتعة واللذة غاية الحياة، وهذا هو علة ما تعانيه الشعوب الضعيفة من ظلم، وما عم الأسر من تحلل وشقاء وما شاع في المجتمعات من فساد.

هذا وقد أرسى الإسلام قواعد الثبات والخلود لآدابه فربطها بالحق الأصيل الذي قامت عليه السموات والأرض، ونسبها الى الله سبحانه، وله المثل الأعلى في كل ما خلق ودبر وارتضى من خلق كريم[1].

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [2]

فالخير والشر والحق والباطل- كما يقول الأستاذ أنور الجندي- (مايزال في مفهومه الأصيل منذ أنزل الله الرسل والكتب ولن يصبح الباطل حقاً أو يصبح الشر خيراً).

ولن يغير الزمن في حركته أو المجتمع في تطوره من ثبات الأخلاق، وإنما تتغير العادات والتقاليد التي صنعها الإنسان نفسه لأنها تبلى وتفسد، أما القيم الأخلاقية العليا التي جاء بها الدين الحق فإنها لاتتغير لأنها في مواجهة خطة الإنسان التي لا تتغير، فهي من الثوابت القائمة التي تتحرك من حولها الأشياء والناس.

ونحن لسنا مطالبين بأن تتواءم قيم العقائد والأخلاق مع متغيرات الحضارة والمجتمعات، بل على المجتمعات أن تتواءم قيم العقائد والأخلاق الثابتة القائمة ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ﴾[3]

هذا في مجال الثبات، أما في مجال التغير فقد رسم القرآن في كلمات قانون قيام الحضارات والدنيا وسقوطها: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾[4]

فالحق تبارك وتعالى يدعونا الى أن نغير أنفسنا ذا أردنا أن نغير مجتمعنا وأوضاعنا، فمنطلق الإسلاح والعنصر والتحول من الضعف الى القوة متمثل في إرادة التغيير).

والتغيير هنا هو التحرك في إطار الثوابت من أصول الإيمان أساساً، وليس التغيير بالحركة خارجه أو ضده، ذلك أن الهزيمة إنما تأتي من مجاوزة الإطار

---

(١) محمد شديد، منهج القرآن في التربية، بيروت، دار الأرقم، ص: ١٧٩-١٨١.
(٢) محمد شديد، منهج القرآن في التربية، بيروت، دار الأرقم، ص: ١٧٩-١٨١.
(٣) سورة الروم الآية: ٣٠.
(٤) سورة الرعد الآية: ١١.

الثابت المحكم الذي رسمه الحق تبارك وتعالى لحركة الحياة بما تتضمن من مفهوم رسالة الإنسان في الكون ومسؤوليته الفردية والتزامه الأخلاقي..)[1].

التربية لدى علماء المسلمين

قد يبدو لغير المشتغلين بالعلوم الإسلامية، أن علوم التربية ومناهج وأساليب حماية الناشئة من الانحراف هي من معطيات التطور التقني ونتيجة من نتائج علاقات الاجتماع والاقتصاد التي شهدها تطور العمران منذ عصر النهضة الاوروبية وللايوم، وفي الواقع إن هذه النظرة قاصرة، وتحتاج الى رشد وتوجيه.

فعلماء الإسلام من القدماء والمحدثين، لم يغفلوا المناهج التربوية التي تتواءم مع كل مرحلة من تطور الحياة الاجتماعية عند الطفل مع مراعاة عنصر العمر الذي يمر به، فنظرة مجملة على تراث عالم مثل أبي حيات التوحيدي)، نرى الرجل قد عني عناية فائقة بهذا الجانب المهم في حياة المجتمعات وقد ظهرت اهتماماته بعلم التربية، بعد أن عاش ظروف عمره كاملة وطاف الأرض، وعاشر طوائف المجتمع، واطلع على خبايا النفس الإنسانية مما ساعده على رؤية ثاقبة في مجالات عديدة أو من بينها نظرته الى علم التربية الذي انطلق اليه من مرتكز إدراكه بطبيعة النفس الإنسانية، فهو يرى أن الإنسان هو: (الشيء المنظوم من عناصر الطبيعة للمادة المخصومة بالصورة البشرية المؤيد بنور العقل من قبل الإله).

وهو عنده (بشر ضعيف) بنيته متهافة، وطينته منتشرة وله عادة طالبة وحاجات هاتكة، ونفس جموع، وعين طموح، وعقل طفيف ورأي طفيف).

وهذا البشر الضعيف تأتلف فيه جميع أخلاق الحيوان إلا أنه كما يقول: (وهب الفطرة وأعين بالفكرة، ولذلك فالإنسان عنده منظوم من عناصر الطبيعة على صورة البشر من خلق الله، وهو ضعيف، رغم أنه جمع جميع أخلاق الحيوان إلا أه أفضل منها جميعاً بالفطرة والعقل.

ويقر التوحيدي بالفروق الفردية، وينقل فيما ينقل (إني لأعجب من ناس يقولون: كان ينبغي أن يكون الناس على رأي واحد، ومنهاج واحد، وهذا ما لايستقيم ولا يقع به نظام).. (والعاقل الحصيف يعلم أنه لا بد من التفاوت الذي يكون به التصالح، كالعالم والمتعلم والآمر والمأمور، والصانع والمصنوع له)، وعلى هذا يتفاوت الناس في العقول والمكاسب والمنازل الاجتماعية، وعلى هذا وقع التفاوت في العقول، فصار هذا يملك بعقله ما لايملكه الاخر، فهذا ينظر في الطب وذاك في النحو وغيرهما في الهندسة، وآخر في الفقه، وإنها لكثيرة إن لم تكن بلا نهاية) وعلى هذا

---

(١) أنور الجندي، (الثوابت والمتغيرات: تغيير النفس وتثبيت الخلق)، مجلة جوهر الإسلام، السنة السادسة، العدد: ١، أكتوبر ١٠٩٧٣، ص: ٦٢-٦٦.

تختلف الأمم وتتفاضل، ونراه يدعو إلى مراعاة الفروق الفردية في التعلم فقلما يرى شخصان يتشكلان في الظاهر إلا ويتباينان في الباطن.

ونراه في دقة متناهية يؤكد على دور الوراثة وتأثيرها في البذية الجسمية والعقل أيضاً، ويروى عن العرب: (اغتربوا لاتضووا) ويعلق قائلاً، واستفاض هذا منهج حتى سمع من صاحب الشريعة (ص)، وذلك أن الضوى مكروه، (لأن) الضوى الواصل الى الأبدان هو سار في العقول(ويرى أن العرب لم ترد بالضوى) إلا نقص الذهن العقل، لأنها لو أرادت نقصان الجسم لكانت مخطئة، لأنهم يريدون سمانة الجسم مع السلامة والصلابة).

كما يؤكد أثر البيئة وتقريره للفروق الفردية والجماعية بحكم أن الإنسان مدني بطبعه ولذلك فالواجب ما يعرض في أصناف ذلك من الأخذ والعطاء، والمجاورة والمحاورة، والمخالطة ما يكون سبباً لانتشار الأمر)، فإلى جانب الفردية توجد الجماعية، (ولذا يروى روايات عديدة: ضرورة حسن العشرة، الألفة بالناس، وصلة الرحم وغير ذلك مما يفيد اجتماعياً).

هذا وله آراؤه في الجماعة والتجمع لاتقل أهمية عن آراء ابن خلدون، إن لم يكن أصلاً من أصوله، ويرى أن حياة الناس لاتستقيد إلا اذا قامت على العدل والحب في الله، والبر، والأخوة الصادقة الخيرة، لا أخوة الشر والسوء.

وهكذا يقر فردية الإنسان وجماعيته، وهو مما يتوافق في تأثير البيئة، ولهذا مضامينه التربوية المتمثلة في تربية الأفراد تربية استقلالية اجتماعية على مواصفات المجتمع الذي يعيشون فيه، ويحققون العدل، والدين،وغير ذلك من مواصفات تحقق الفرد الصحيح والمجتمع الخير.

ويرى أبو حيان أن أفعال الإنسان تدور بين الجبر والاختيار، ويعرض اختلاف وجهات النظر في هذا المجال، ويحلل أسباب ذلك الاختلاف النتائج عن اختلاف النظرة الى مصدر الفعل الإنساني، وباعثه، والمباشر الإنسانية لهذا الفعل.

أما عن النمو الجسمي، فينقل التوحيدي عن بعض الأدباء أن مراحل النمو الجسمي تتمثل في: الرضاعة والإنسان فيها وليد، والفطام، والإنسان فيها صبي، ثم المراهقة والإنسان فيها غلام، ثم البلوغ وفيها يظهر شعر الوجه والإنسان فيها شاب، ثم يكون مجتمعاً، ثم كهلاً فشيخاً.

ويستشهد على هذا بكلام طبيب يرى أن مراحل النمو الإنساني أربع وأراها ألصق بالنمو العقلي:

- **الغلام:** وهي لسن سبع، وفيها ينهر الغلام.
- **الاحتلام:** وهي لسن أربعة عشرة.

- **تمام النمو الجسمي:** وهي لسن إحدى وعشرين.
- **تمام العقل:** لسن ثمان وعشرين ثم تكون التجارب.

أما النمو النفسي وحالاته، فتراه حين يتحدث عن الحياة يذكر أصنافاً عشرة.

يخص الإنسان منها ثمانية، هي على الحقيقة أحوال الإنسان، برغم التفاوت الواقع فيها بين إنسان وآخر و هي متدرجة(يتدرج فيها الواحد من البشر) بحسب التوفيق الإلهي وما وهبه للإنسان (والتكامل البشري والمساعي السابقة).

فنحن هنا أمام عدة حقائق في النمو النفسي:

- أن النمو النفسي واقع للإنسان.
- أن هناك تفاوتا في هذا النمو النفسي.
- أنه متدرج من البسيط الى المركب.
- ان ما وهبه الإنسان والجهد التربوي والتعليمي يلعب دوراً في هذا النمو.

أما ألوان تلك الحالات أو المراحل أو الحياة كما عبر التوحيدي فتتلخص في:

- **حياة الحس والحركة:** وبها يحس ويتحرك ويلتذ وينعم ويشتكي ويتألم، وقد تضطرب فتتعرف للنقص ولا تنمو فيصير صاحبها في مرتبة الحيوان، أما اذا استمرت في النمو أخذ صاحبها الفوائد واقتبس المعارف، فيرتفع الى ألوان رفيعة من الأحوال النفسية[1]. وهذه الحالة هي أولى الحالات التي يمر بها الإنسان، وهي الأساس لكل ما عداها.
- **حياة العلم والمعرفة:** والفهم والحفظ والدراية والروية، والبحث والاستنباط والحكمة والسؤال والجواب، فإن التوحيدي يشترط لكمالها حسن الذية، والسعي الدائم، والدافعية، مع صدق التوجه ورقة المزاج وأما:
- **حياة العمل:** فهي ضرورية للسابقتين، فهي ترجمة لهما ونتيجة من نتائجهما ومن تحقق منها(زادت من قيمته، وعلت من درجته، وأفادته شرفاً أبدياً وعزاً سرمدياً، وألبسته جلباب البقاء، وسلكته الى كشف السعادة وخلطته بزمرة الملائكة[2] وأما:
- **حياة الديانة والسكينة:** فهي حال ينال بها الإنسان خير الآجلة الفائت، وأما:

---

(١) المرجع السابق، ص: ٥٦.

(٢) المرجع السابق، ص: ٥٧.

- **حياة الأخلاق:** فهي تهذيب النفس، ونفي الخبيث، وبها يهنأ عيش الإنسان، وعيش من يعايشه، وتصفو سريرته، ويبر سعيه.

ويرى التوحيدي أن من استطاع أن يجمع كل ما سبق بالتناظم والتلازم، والجمع والتأليف، علا شأنه وتوازنت حياته في الدنيا للعمل من أجل حياة البقاء والعاقبة وهي الحياة التي لاتنال إلا بعد الموت، ولا بد من السعي الحثيث لها لأنها (حظيرة القدس، ومراد الأنس، حيث يتعذر مطلوب، ولايفقد محبوب، حيث الطمأنينة والروحانية)[1]

هذه هي مراتب النمو النفسي التي يعيشها الإنسان حالات، حتى تجتمع فيكون الإنسان في طريقه الى النمو المتكامل، وهذا يعني أن الجهد التربوي اللازم لابد وأن يراعي ذلك ويعمل على تحقيق هذا النمو المتكامل المتوازن.

وهذا ويرى الدارس لتراث التوحيدي أنه تصور صيغة التكامل بين مكونات الذات الإنسانية، ويتبين ذلك من عرضنا التالي: حين يطرح مرئيات واعية مستنيرة حول النمو الجسمي وحياة الحس والحركة والعمل والوراثة وفيها ما يوضح نظرة الرجل الى الجسم، ونجد في البصائر فصلاً في الطب يذكر فيه نصائح للمحافظة على الجسد وإشباع مطالبه، ويذكر وظيفة الطب، حيث هي حفظ صحة الجسد واجتلاب الصحة، وهذا يؤكد مراعاة الرجل للجسد باعتباره مكوناً من مكونات الذات الإنسانية كما يحتل العقل عنده مكاناً بارزاً، فهو (قوة الهية) بمعنى منحة من الله، ونور بمعنى الهداية الرشد.

ولأهمية العقل تلك نجده يذكر روايات في فضل العقل، وذم الهوى والتحذير من آفات العقل، أما أعمال العقل فهي (تمييز وتحصيل وتصفح، وحكم وتصويب وتخطئة، وإجازة وإيجاب وإباحة)، وكلها وظائف مترادفة كما يقول، وبالعقل يتفاوت الناس، فمنهم العاقل، والأعقل، ومن فيه لوثة، وغير العاقل، فهم مختلفون فيه كما هم مختلفون في الخلق.

ويرى أن الناس أصناف من حيث نصيبهم من العقل، ومدى وظيفته وعمله عندهم، فصنف منهم مغمورة عقولهم بشهواتهم، فهم لايبصرون إلا حظوظهم العاجلة، وصنف منتبهة عقولهم، لكنها مخلوطة بسبات الجهل، وفهم يحرصون على الخير واكتسابه، ويخطئون كثيراً وهؤلاء الجهلة، وصنف ذكية عقولهم، لكنها عمية عن الآجلة، إذ أنها تدأب في نيل الحظوظ بالعلم والمعرفة والوصايا اللطيفة والسمعة الربانية، وصنف مضيئة عقولهم، بما فاء عليها من عند الله، فهم يحلمون بالدنيا

---

(١) التوحيدي (البصائر) مرجع سابق، ج: ٣/٥٠٠.

ويستيقظون للآخرة فكأن أصناف العقول حسب استعمالها: المغمور، والمتنبه، والذكي، والمضيء.

كما يرى أن العقل عقلان (عقل بالقوة وعقل بالفعل) وعقل بينهما، ويقصد به التهيؤ والاستعداد للظهور بالاكتساب، فإذا برز فهو عقل بالفعل أي مكتسب حتى إذا نضج بلغ الأفق، وهكذا يشير الى أهمية تربية العقل بصقله وإجلاء الصدأ عنه، بحيث يكون قابلاً للخير، لأنه إذا لم يصنع معه هذا لم ينتفع به.

ومن أطروحات ومرئيات أبي حيان التوحيدي في مجال التربية من منظور إسلامي يمكن استخلاص أهم أهداف التربية عنده، و هي استنتاجات من المضامين التربوية لأفكاره، فهو يرى أن السمو بالإنسان هو الأمر الذي يجب أن يحظى بكل عناية، سواء من الإنسان ذاته، أو ممن يحيطون به، ذلك السمو يعني السمو في العبادة، والمعاش، والحياة الآخرة استعداداً لها، على أساس من العلم والتعلم، والفهم والعقل بتحقيق الأهداف التالية:

- الإعداد لطلب المعاش واستصلاح أمور الدنيا، ودفع المضار عن البدن بالعناية به، والتحفظ عن الموارد المخوفة في حياة الدنيا والتي تضر بالإنسان.
- إخلاص الذية لله تعالى والوقوف على أمره ونهيه، ثقة بما وعد به من الثواب، وتحقيقاً لمعنى العبودية الكاملة، باتخاذ القرآن دليلاً، والثقة في الله تعالى والتوكل عليه.
- الالتزام الخلقي والتدريب على اختيار مكارم الأخلاق ومحاسنها وبطريقة عفوية تلقائية، مع الفهم الجيد لهذه المبادئ الخلقية.
- الانتفاع بالعلم، ومجاهدة الهوى في طلبه، وإجلال العلماء، وطلب اليقين وطرح الشك، وتربية العقل بطريقة سليمة.
- التدريب على العمل الصالح واختياره بإرادة مستقلة، غير محتج على العمل السيئ بإرادة الله تعالى، ليتوقف عما أوقفت عنه، متخففاً الى ما انهض إليه، وليعلم أن البدء من الله والحجة منه على الإنسان في عمله.
- التدريب على معاشرة الناس بالحسنى، والتودد إليهم والتعاون معهم من أجل بناء مجتمع فاضل، خال من الأحقاد والأضغان، تتحقق فيه العدالة محققاً إرادة الله تعالى فيه.
- التدريب على الانفتاح العقلي وتقبل الحق، وكذلك التذوق الجمالي وإدراك الجمال في مظانه الأدبية والفنية والطبيعية وغير ذلك مما يساعد على ترجمة الجمال في السلوك الإنساني.

- مساعدة الإنسان على تحقيق الوحدة النفسية، والتوافق النفسي، وتحقيق السكينة النفسية، والإلهية منها على وجه الخصوص، إذ هي تشع على النفس كلها وتحقق أنواع السكينة كافة، و(ما استودع صاحبها من نور العقل وقبس النفس وهبة الطبيعة، وصحة المزاج، وحسن الاختيار، واعتدال الأفعال، وصلاح العقول، وطهارة السر ومساواته للعلانية، وغلبته بالتوحيد، وانتظام كل صادر منه، وارد عليه).
- الاستعداد للحاية الآخرة – حياة العاقبة- وتسخير قوى الإنسان كافة للعبور لهذه الحياة ونيل السرمدية فيها.
- إعداد الإنسان لتسخير قوى الكون، والطبيعة عقلياً وجسمياً واجتماعياً وغير ذلك حتى يتمكن من هذا التسخير.

إذن الهدف من التربية أساساً السمو بالإنسان، وتحقيق السكينة له، وإعداده لتحقيقها، وتحقيق التوافق النفسي والرضا ظاهراً وباطناً، ذلك التوافق المتوتر في صحة وعافية، والمتمثل في صحة العلائق، ليسمو فوق التوترات والتناقضات، في سبيل إيثار الحق، و هذا إنما يعني تنوعاً في وحدة الإنسان من أجل ثراء حياة الإنسان.

وتتعدد جوانب ومجالات التربية عند التوحيدي، إلا أنه هنا يدعو الى استمرارية التربية والتربية الذاتية، في سبيل تكامل الشخصية الإنسانية، ومن الجوانب التي تساعد على ذلك التربية الدينية باعتبارها من أهم لوازم الإنسان لحياته الدنيا والآخرة، والذي (من عري منه فهو أسوأ حالاً)، وباعتباره نعمة من الله وتكليفاً منه تستقيم به أمور الدنيا والآخرة، كانت التربية الدينية من أهم جوانب تربية الإنسان، وأهم جوانب تربية الإنسان، وأهم وسائلها الالتزام بأوامر الشرع، ولذا نراه يحدد أموراً هي من الأمور الهامة للتربية الدينية، يقول: (الجدل في الدين يحدد أموراً هي من الأمور الهامة للتربية الدينية، يقول: (الجدل في الدين مطردة لليقين، الإتباع خير من الابتداع.. الشريعة مأدبة الله للعباد، السنة حلية الديانين.. التوحيد حياة النفس.. المعرفة الفوز بالقدس.. إذا ضللت عن حكمة الله فقف عند قدرة الله.. اسبق عقلك الى ملكوت الله ولا تقحمه في جبروته .. إذا استأثر الله بشيء قاله عنه..).

الهدف هو التأدب بأدب الله، بشريعته، والالتزام بالتكاليف، والوقوف عند قدرة الله، والتخلص من الهوى، وترك الجدل في الدين، وهذا هدف واسع شامل، لايقتصر على مجرد أداء العبادات، بل يتجاوزه الى السلوك الشامل طبقاً لأوامر الشرع والوقوف عند قدرة الله، وهذا ليس رأياً ممثلاً لثقافة العصر السائدة، بل هو رأي نتج عن تجربة طويلة، ترى أن التربية الدينية الخالصة البعيدة عن المهاترات الجدلية،

هي سلوك، وتسليم للخالق بعيداً عن الخوض في مذاهب العقليات والغيبيات، وماستره الله عنا حتى يتحقق الفوز بالنعيم والخلود في جوار الله.

إن التزام أوامر الشريعة- مأدبة الله والاستضاءة بنور الله، وفهم الوحي، وترك الجدل في الدين، والتزام التوحيد، والمعرفة لله، والتعرف على قدرته، وطرح هوى النفس، والتزام العمل بالعمل، والثقة في رحمة الله والتوكل عليه، والتفكر في ملكوت الله، وترك ما استأثر الله بعلمه، هي أهداف التربية الدينية التي هي أهم حالات النمو النفسي للإنسان.

هذا ويتحدث التوحيدي عن الأخلاق ويتوسع فيها، لكنه وبذكاء شديد يفصلها فصلاً اعتبارياً عن مجال الدين لاعتبارات معينة ويرى أن الخلق منه ما يزول بالرياضة، ومنه ما لايزول، ومنه ما هو صورة للنفس لايطمع في البراءة منه.

ولذا يذهب الى أن على الإنسان أن يجتلب محمود الأخلاق ويتجنب مذمومها، لأن أخلاق الإنسان مقسومة على أنفسه الثلاثة: الناطقة والغضيبة والشهوانية، ولذا فإن (سمات هذه الأخلاق مختلفة بعرض واسع) وأخلاق الإنسان (بين المحمودة وبين المذمومة وبين المشوبة بالحمد والذم، وبين الخارجة منهما).

وكما أنه (لاسبيل الى تبديل الخلق كذلك لا قدرة على تحويل الخلق، لكن الحض على إصلاح الخلق، وتهذيب النفس لم يقع من الحكماء بالعبث والتجزيف بل لمنفعة عظيمة موجودة ظاهرة) ولذا فإنه من الواجب على الإنسان أن يعني ما استطاع (باجتلاب محمود الأخلاق واجتناب مذمومها وتمييزه مما يمكن فيه أو تقليله، أو إطفاء جمرته، أو اجتناء ثمرته).

وتحتوي نظرته للأخلاق على الجانب المعرفي الذظري، والجانب الإداري التطبيقي، وكلاهما متكاملان، إذ يجب تعريف الإنسان وتدريبه على التمييز بين الأمور، وهنا تظهر أهمية التعليم لاكتساب الفرد طريقة النظر والسلوك لإصلاح أخلاقه، واختيار المحمود منها، وتهذيب نفسه طبقاً لروح الزمان والمكان، لأنه (ليس في جميع الأخلاق شيء يحسن في كل زمان وفي كل مكان، ومع كل إنسان) وأمور الأخلاق (لاتوجد إلا متلابسة، ومتداخلة، وتخليص كل واحدة منها بحدة وحقيقته ووزنه مما يفوت ذرع الإنسان الضعيف المنة، المنتشر الطينة).

وهنا تقوم التربية بدورها الفعال فتزود الإنسان بالمعرفة اللازمة، وتدربه على الاختيار الأمثل، وهذا ما يوحي به كلام التوحيدي، برغم من أنه لم يفض في الوسائل الممكن استخدامها في التربية الخلقية.

هذا ويمكن أن تلمح اهتمامات التوحيدي بالعقل وأهمية تربيته، فهو في حاجة إليها، والقدرات العقلية في حاجة الى إنضاج وليس من سبيل إلى ذلك إلا بالتعليم، ومجالات تربية العقل وتعليمه واسعة لا تقتصر على التشريع كما ذكرنا، بل تشمل

الموارد الفكرية كافة، ولكن الإنسان هو المحور الأساسي للتربية العقلية، يقول: (من أخلاق النفس الناطقة – إذا صفت- البحث عن الإنسان ثم عن العالم، لأنه إذا عرف الإنسان فقد عرف العالم الصغير، وإذا عرف العالم فقد عرف الإنسان الكبير، وإذا عرف العالمين عرف الإله الذي بجوده وجده ما وجد).

أما وسائل التربية العقلية فتتمثل في المحاورات والمناظرات، والتجارب والإطلاع، والدراسة ومجالسة العلماء، مع أهمية طرح الهوى، ومراعاة القدرة العقلية، والسؤال والفروق الفردية، وهكذا يولي التوحيدي أهمية خاصة لتربية العقل من أجل سلوك متعقل قائم على معرفة وعلم يؤدي إلى إيمان بالله تعالى.

ومهما كان من أمر يمكن القول إن العمل الفني وتذوقه في النفس الإنسانية يكون للدراسة وللتذوق وللتدريب دور هام في اكتساب خصائصه، ثم يأتي دور الفكر والإدراك الجمالي، ومن ثم تتأتى أهمية التدريب على الإدراك الجمالي والتذوق والانفعال والتعبير سواء أكان أدبياً أو في مجال الخط، وقد لفت التوحيدي نظر الأديب وزوده بعدة نصائح لصياغة عباراته لتكون جميلة حلوة.

وفي رسالة علم الكتاب بتناول أنواع الخطوط العربية، وطريقة استعمال الأقلام وبريها، ومعاني الخط، وأصول تلك المعاني، ويصف الخطوط الجميلة أوصافاً غاية في الدقة والروعة، وينقل نقولاً كثيرة في ضرورة جمال الخط، وكيف أنه تعبير عن نفس جميلة.

إن الاهتمام الذي أبداه التوحيدي بالجمال، والذوق الجمالي دعوة صريحة الى التربية الجمالية للإنسان العربي المسلم.

رحم الله التوحيدي، كان غريباً في عصره، بات يحس بالغربة بين أهل بيئته، عاداه الجميع لصراحته ونقده لأوضاع لا يرضاها، لكنه لم يتوان عن تأدية رسالته رغم تشاؤمه وسخطه وتبرمه ويأسه الذي دعاه لاحراق كتبه، أراد أن يربي الإنسان على التفتح العقلي ليقع على الحق، وليقول الحق، فأغضب عليه السلطان وأصحاب الأقلام، فهل يمكننا أن نقول إنه قد حرص على تربية الغريب، على خلق وفكر ودين؟ أخذ من نتاج العقول، لكنه لم يغرق، فكان كما قال:

(اللهم إنا قد أصبحنا غرباء بين خلقك فآنسنا في فنائك، اللهم وأمسينا مهجورين عندهم فصلنا بحبائك، اللهم إنهم عادونا من أجلك لأنا ذكرناك لهم فنقروا، ودعوناهم إليك فاستكبروا، وأوعدناهم بعذابك فتحيروا، ووعدناهم بثوابك فتميروا، وتعرفنا بك اليهم فتنكروا، وصناك عنهم فتنمروا وقد كفتنا عن نذيرهم ويئسنا من توقيرهم).

منهج التربية: عند الإمام جعفر الصادق

بالرغم من عدم الاستقرار الذي أحاط بحياة الإمام جعفر الصادق (٨٠-١٤٨ هـ) سواء في الفترة التي عشاها في ظل الدولة الأموية، أو تلك الفترة التي عاشها في ظل الدولة العباسية إلا أن من بين التراث الذي ينسب إلى الرجل ما يدل بشكل قاطع على تمكنه وامتلاك جوانبها من بين حكمة الرجل وتوجيهاته يمكن أن يتولد معها منهج تربوي مستقيم يعبر عن فكر الرجل الذي يمكن رؤية بعض أهدافه التربوية في الدعوى الى وجوب:

- معرفة الله حق المعرفة، بالوقوف على ما أمر به ونهى عنه، ومايترتب على ذلك من التزام وإخلاص وتوكل على الله، والى ضرورة التربية الخلقية والالتزام بمكارم الأخلاق، وترجمتها في سلوك فعلي في حياة الإنسان، اذ لا معنى للخلق بدون عمل.
- التربية العقلية، وتدريب حواس الإنسان وعقله حتى ينمو نمواً متدرجاً وينتقل من الجهل على العلم والتصرف، وذلك بدراسة العلوم الشرعية وكذلك العلوم الكونية.
- التربية البدنية، وتدريب الجسم حتى ينمو متدرجاً، وينتقل الى تمام الإدراك، والحركة الفاعلة.
- التربية العملية، وتدريب الإنسان في سبيل استغلال الأشياء استغلالاً بتوافق مع طبائعها ومع تحقيق مصلحته
- التربية على أحكام الشريعة، والالتزام بأوامرها، وتحقيق التقوى والورع، ومداراة الناس.
- التربية الاجتماعية، بحيث يتدرب الإنسان على العيش مع غيره من آباء وأقارب، وعلماء ورجال وسلطان.
- التربية على التعايش مع الابتلاء، والتأدب بأدب الله معه، كالصبر.

إن هذه الأهداف هي التي تبرز واضحة في تراث الرجل من خلال توجيهاته، إنه رضي الله عنها في مجال الاهتمام بتربية الطفل وضرورة رعايته، يولي تربية الأطفال والناشئة أهمية بالغة، خاصة في ضوء معطيات عصره، وفي ظروف كظروف البيت العلوي لابد من الاهتمام بتربية النشء والعناية بهم، ومن أجل هذا نراه يسوق كثيراً من الأقوال المعبرة والنصائح البالغة.

وينصح بحب الصبيان ورحمتهم والوفاء بالوعد لهم، ويرى أن سن التعليم هو سبع سنين (الغلام يلعب سبع سنين، ويتعلم الكتاب سبع سنين، ويتعلم الحلال والحرام سبع سنين) ويقول: (دع ابنك يلعب سبع سنين)، و هذا الذي يقوله ردده كثير من علماء الإسلام، فهو لم يخرج عن الجو الإسلامي العام، ويوصي الآباء بحب أبنائهم (إن الله عز وجل ليرحم الرجل لشدة حبه لولده).

ويوصي بالمبادرة بتنشئة الأولاد تنشئة صالحة، وينصح ابنه قائلاً: (يابني إن تأديب صغيراً انتفعت كبيراً، ومن عني بالأدب اهتم به، و من اهتم به تكلف علمه، و من تكلف علمه اشتد في طلبه، و من اشتد في طلبه أدرك منفعته)، و من جملة النصائح والوصايا يتبين ما يأتي:

- أهمية تربية الطفل والعمل على تأديبه، وإسداء النصح له.
- أهمية اللعب في حياة الطفل، وترك الطفل ليلعب سبع سنين أمر له أهميته في تنمية قدرات الطفل ومهارته كذلك يستفاد من توجيه الإمام جعفر الصادق (رضي الله عنه)
- أهمية توليد الشعور بالمسؤولية الشخصية لدى الطفل، وإحياء روح الاستقلالية لديه، وذلك من الأهمية بمكان في فكر الرجل.
- تنمية روح الاعتماد على النفس، والجد في أداء الواجبات.

والصادق يلفت النظر إلى أهمية تربية الطفل على مبادئ الإسلام الصحيحة في عصر كان شبيهاً بعصرنا مزدحماً بالأفكار والنظريات والمذاهب الصحيحة وغيرها، ومن ثم لابد من تحصين الطفل ضد المذاهب غير الصحيحة، وبذلك يضمن إيجاد وتكوين رجال أصحاء جسدياً وفكرياً وعقيدياً، و هذا ولايغفل الإمام الصادق الجانب التعليمي أو مانسميه بالمنهاج الدراسي.

فمن خلال ما قال الصادق يمكننا أن نذكر رأيه في المنهاج الدراسي والذي يقسمه الى قسمين كبيرين هما:

العلوم الدينية: وتشمل علوم القرآن وعلوم الحديث، فقد كان الصادق صاحب مذهب فقهي اعتمد أصوله من القرآن والسنة، ولذا كان لا بد من الالمام بعلومهما ومعهما علوم اللغة العربية، وكان يروي

الحديث والسنن ويتحرى صدقها ويروض أصحابه على التماس أصلها من القرآن الكريم.

العلوم الدنيوية: لقد وضع الإسلام قواعد الانطلاق في العلوم الدينية والدنيوية، وشهد عهد الخليفة عمر بن الخطاب بوادر نقل تلك العلوم، ثم استمر ذلك حتى جاء

عصر الصادق فكانت توجيهاته نافعة في الانفتاح على علوم الآخرين، وقد اتسع فهمه حتى أنه قال: (لايستغني أهل كل بلد عن ثلاثة يفرغ إليهم في أمور دنياهم وآخرتهم، فإن عدموا ذلك كانوا همجاً: فقيه عالم ورع، وأمير خير مطاع، وطبيب بصير ثقة).

وانطلاقاً من هذا، اهتم الصادق بالعلوم الكونية والكيمياء ودرسها واستوعبها، ونال فيها شهرة واسعة بين معاصريه، ولعل هذا كان من أهم الدوافع التي حدت بجابر بن حيان أن يتتلمذ عليه، وقد اهتم الصادق بتعليم مادة الكيمياء لما رأى لها من أهمية وفائدة كبيرة، وقد ساعد هذا على تخليصها من الأساطير والأوهام التي علقت بها، وكانت للصادق منهجية في مدرسته التي قادها في العلوم الطبيعية، وتمثلت هذه المناهج في: علوم الفلك، ووظائف الأعضاء، والنبات والفيزياء، والكيمياء، وعلوم الصنائع.

والملفت للنظر حقاً هو صيغة التكامل والشمول التي تميز بها الصادق في تناوله العلوم الدينية والعلوم الدنيوية، وعدم الفصل بينهما، حتى أنه يجعل منزلة الأمير والفقيه والطبيب واحدة، ويستخدم نتائج العلوم الطبيعية للاستدلال على عظمة الإله وقدرته، وفي التدليل على صدق التبليغ عنه.

هذا وتستوعب مجالات التربية عند الصادق كثيراً من ميادينها أن لم تكن جميعها ويمكن النظر الى مجالين عند الإمام الصادق.

الأول: التربية الدينية والخلقية:

تدل أقوال الصادق على حرصه على تربية تلاميذه على أمور الدين، وقد كان الصادق شيخاً لكل من مالك وأبي حنيفة، مما يدل على سعة علمه الديني، وقد اهتم بسلوكيات تلاميذه، مخلصاً إياهم من النزعات الضالة والتطرف والتعصب البغيض، ويضرب لهم المثل والقدوة من أخلاقه وفكره، والى جانب هذا خاض مناظرات علمية لاثبات وحدانية الله وقدرته وعلمه وحكمته.

ويتضح اهتمامه بالتربية الدينية والخلقية من أقواله ووصاياه، يروي عنه الأصمعي، يقول: (الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد كل ضعيف وزكاة البدن الصيام، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، واستنزلوا الرزق بالصدقة وحضنوا أموالكم بالزكاة وينصح ابنه قائلاً: (كن للقرآن تالياً، وللسلام فاشياً، وللمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلاً، ولمن سكت عنك مبتدئاً، ولمن سألك معطياً، وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في القلوب، وإياك والتعرض لعيوب الناس، فمنزلة المتعرض لعيوب الناس كمنزلة الهدف).

وفي هذا المجال ينصح بنصائح غاية في الأهمية تدخل في مجال الأخلاق الإسلامية، منها على سبيل المثال: (ما عال من اقتصد، والتدبير نصف العيش، والتودد نصف العقل، وقلة العيال أحد اليسارين، ومن أحزن والديه فقد عقهما ومن ضرب على فخذيه عند مصيبته فقد حبط أجره، والصنيعة لاتكون صنيعة إلا عند ذي حسب ودين، والله تعالى ينزل الصبر على قدر المصيبة، وينزل الرزق على قدر المؤونة، ومن قدر معيشته رزقه الله تعالى، ومن بذر معيشته حرمه الله تعالى)، وعنه: (لا زاد أفضل من التقوى، ولا شيء أحسن من الصمت، ولا عدو أضر من الجهل، ولا داء أقوى من الكذب).

إلى جانب هذا ينهى عن الخصومة في الدين ويدعو الى الاعتدال في العبادة ويدعو الى الالتزام بالأخلاق الحميدة، وأن لا بذل الإنسان نفسه لأحد.

ومن مجموع النصوص السابقة يتبين أن الرجل استهدف من بين ما كان يريده اهتمام الرجل بتربية الوازع الداخلي وتنمية الحرص على أداء الفرائض.

واهتمامه بأبعاد أتباعه بالتربية عن الخصومات الدينية التي تورث النفاق واهتمامه بالممارسات العلمية لشعائر الدين، حتى لايصبح مجرد شعارات، واهتمامه بتربية الأفراد على مكارم الأخلاق.

واهتمامه بتربية الأفراد ليتمكنوا من سياسة معاشهم، وتقديرها تقديراً سليماً، مع تجنب التبذير فيها.

واهتمامه بتربية الأفراد على احترام الناس، ومخالطة العلماء، وتجنب مداخل السوء، وعدم الدخول فيما لايعني، وغير ذلك من ألوان التربية السلوكية.

واهتمامه بتربية الإنسان على قول الحق أيا كان، وكذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

واهتمامه بتنمية الحرص على كتاب الله ومداومة تلاوته عند الأفراد.

واهتمامه بتنمية الأفراد على خلق إفشاء السلام والالتزام بالآداب الاجتماعية.

وجماع معالم هذه التربية يتمثل في التقوى، وتنمية الإنسان الصالح، دينا وخلقاً واجتماعاً ومعاشر ليعيش حياة دنيوية سعيدة بين الناس، ويتجنب مهاوي الهوى والرذائل، ويستعد لسعادة حقيقية في الآخرة.

والثاني: التربية العلمية والفكرية:

إن ملامح هذا المجال من التربية يتضح من خلال أخباره فيما كتبه جابر ابن حيان، ويمكننا تبين هذه الملامح فيما يأتي:

- الإيمـان بـالعلم، وأهميتـه، وإدراك أهميـة التعلـيم وإدراك أهميـة التوجيـه العلمي والفكري من الأستاذ المعلم للمتعلم، وكذلك أهمية وجود التعاطف بين الأستاذ والتلميذ، وأن يكون التلميذ ليناً قابلاً لجميع أقوال أساتذته.
- وأهمية إقبال المتعلم على الأستاذ إقبال شغف، وأن يحفظ أستاذه ن ويترك الكسل والتشاغل عنه.
- أهمية قيام العلم والتفكير العلمي على أساس عقلاني، ومع توافر المعرفة بخواص الأشياء كذلك لابد من توافر الموضوعية في الدراسة العلمية ولابد كذلك من تبسيط العلم وتسهيله، وعدم الاغراق في الرمزية، وتجنب الأطناب الذي يفسد الموضوعية، كذلك تتجلى عنده أهمية اجراء التجربة العلمية بموضوعية.

لقد كان الصادق يدرب طلابه على إجراء التجارب إلى جانب ما سبق، وله في ذلك شروط أوضحها جابر في نصوص له، تدل على شمول نظرة الصادق، وتكاملها وربطه بين العلم والدين، وتأكيده على أهمية إخلاص العمل لله، والتوجه له بالدعاء لتحقق الفائدة، ولذا نراه ينصح جابر حين يريد الإقبال على التجربة وتحصيل العلم، بالوضوء والطهارة والصلاة والاستخارة، والدعاء والتصدق، ويختم نصيحته له بقوله: (فإن الله تعالى يحمدك العاقبة في سائر أمورك، ويزجر الشيطان عن وجهك، واقصد لما تشتهيه، فإنك ترى فيه الرشد.. ويرزقك الله قريباً إن شاء الله).

منهج التربية: عند الإمام الشافعي

الشافعي هو الإمام، أو عبدالله محمد بن إدريس بن عباس بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

ولد في نهار الجمعة آخر يوم من شهر رجب عن سنة خمسين ومائة هجرية وهي السنة التي توفي فيها أبو حنيفة رحمه الله.

وكان مولده في غزة ثم جمل الى عسقلان وهو صغير، ثم الى مكة وهو ابن ستين، والبيئة التي تربى فيها الشافعي ساعدته على تكوين أفكاره المستقيمة ومنهجه الراشد وأحكامه المستمدة من روح الكتاب والسنة.

ولما كنا لسنا بصدد الترجمة للإمام الشافعي كذلك لسنا في مقام التعرف على فقهه وعلمه واجتهاده غذما أحببنا التدليل والبرهنة على أن التجارب والبحوث في مجالات التربية والتقويم ليست حكراً على العقل الغربي واللائذين به، ومن هنا ذهبنا نستنبط من أقوال بعض الأئمة في عصور الإسلام المدبرة ما يمكن أن يشكل قاعدة لمنهج تربوي عصري يترجم روح الأدب الإسلامي والخلق القويم الذي يبرز واضحاً جلياً في تعاليم الإسلام، فما الذي يمكن أن يكون عند الإمام الشافعي من أفكار وتوجيه تصلح مرتكزاً للاسترشاد به في عمل التربية الحديثة ؟.

وبادئ ذي بدء نود أن نوضح ان الإمام الشافعي قد عني عناية عظيمة بعلم السلوك العلمي والنظري والذي هو قوام التربية وأداتها وترجمانها.

فالسلوكية عنده إما فردية أو اجتماعية، أما الفردية فللشافعي فيها تعليمات كثيرة، فمن أجلها ينبغي أن يكون عالم الشريعة عاملاً بعلمه، وأن يكون بشخصه مثلاً وقدوة لمن يعلمهم من الناس، يقول الشافعي لمؤدب أولاد الرشيد – حيث قال له سراج الخادم: يا أبا عبد الله هؤلاء أولاد أمير المؤمنين، هذا مؤدبهم، فلو أوصيته بهم- فأقبل عليه الشافعي فقال: (ليكن ما تبدأ به من إصلاح أولاد أمير المؤمنين إصلاحك لنفسك، فإن أعينهم معقودة بعينك، فالحسن عندهم ما تستحسنه، والقبيح عندهم ما تكرهه، علمهم كتاب الله ولا تكرههم عليه فيملوه، ولا تتركهم منه فيهجروه، ثم روهم من الشعر أعفه، ومن الحديث أشرفه، ولا تخرجهم من علم إلى غيره حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مضلة للفهم).

هذه الوصية العظيمة لاتتعلق بالسلوك فقط، بل فيها من التربية العلمية الدقيقة ما هو جدير بأن يؤخذ مثالاً يحتذى.

وبهذا المعنى قال الشافعي: (من سمع بأذنه صار حكيماً، ومن أصغى بقلبه كان واعياً، ومن وعظ بفعله كان هادياً)، ومن حكمه السلوكية قوله: (العاقل من عقله عقله عن كل مذموم) .

ومن قوله في معنى الغرور: (من سام نفسه فوق مايساوي رده الله الى قيمته).

ويقول: (المروءة أربعة أركان: حسن الخلق، والسخاء، والتواضع، والنسك).

وكان رحمه الله يقول لولده، وقد نقده بأمره: (والله الذي لا إله إلا هو، لو علمت أن شرب الماء البارد ينقص من مروءتي ما شربته).

ويقول: (المروءة عفة الجوارح عما لايعنيها)، ومن قوله: (لايكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع: الديانة، والأمانة، والصيانة، والرزانة)، ومن قوله في الحرية إذا سأله رجل فقال أوصني: فقال: إن الله خلقك حراً فكن كما خلقك)، وقال محمد بن الشافعي: (رآني أبي وأنا أعجل في بعض الأمر فقال: يابني رفقاً رفقاً فإن العجلة تنقص الأعمال، وبالرفق تدرك الآمال)، وهذا قليل من كثير من وصاياه في السلوك الاجتماعي فهي كثيرة، منها قول الشافعي: الانبساط الى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين النقيض والمنبسط)، ومنها قوله: (ما أكرمت أحداً فوق مقداره الا اتضع من قدري عنه بمقدار ما أكرمته)، وكان يقول: (صحبة من لايخاف العار عار يوم القيامة).

يقول يونس بن عبد الأعلى تلميذ الشافعي ورفيقه الى مصر قال: قال لي الشافعي: (عاشر كرام الناس تعيش كريماً، ولا تعاشر اللئام فتنسب الى اللؤم).

ويقول الشافعي: (أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه، ورغب في مودة من لاينفعه، وقبل مدح من لا يعرفه).

ويقول في هذا المعنى: (إن أظلم الناس لنفسه من رغب في مودة من لايراعي حقه) ويقول في لؤم ابن آدم: (طبع ابن آدم على اللؤم، فمن شأنه أن يتقرب ممن يتباعد منه، ويتباعد ممن يتقرب منه).

ويقول في صدق الأخوة: (من صدق في أخوة أخيه قبل علله، وسد خلله وعفا عن زكله)، ويقول في صحبة الأخوان: (ليس سرور يعدل صحبة الأخوان، ولا غم يعدل فراقهم).

ويقول في الوعظ سراً: (من وعظ أخاه سراً فقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية فقد فضحه وشأنه).

وإذا ما نظرنا إلى حبه للعلم وترغيبه فيه نراه يزين طلب العلم بتلك المعاني الجلية التي يقول فيها: (طلب بالعلم أفضل من صلاة نافلة).

ويقول بهذا المعنى: (ليس بعد أداء الفرائض شيء أفضل من طلب العلم، قيل له: ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: (ولا الجهاد في سبيل الله).

وقال لتلميذه الربيع: (ياربيع اطلب العلم ولو في الصين) أما ما ينسب الى الذبي (ص) من هذا الكلام فليس صحيحاً، وقال الشافعي في التواضع في العلم:

(لايطلب هذا العلم أحد بالملك وعزة النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش، وخدمة العلم، وتواضع النفس أفلح).

وقال: (من لايحب العلم فلا خير فيه، ولايكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة).

وكان يقول: (زينة العلماء التقوى، وحليتهم حسن الخلق، وجمالهم كرم النفس).

ويقول: (لا عيب بالعلماء أعظم من رغبتهم فيما زهدهم الله فيه، وزهدهم فيما رغبهم الله فيه)، وقال في شغفه في الأدب والعلم- على ما رواه تلميذه المزني قال: (قيل لمحمد بن ادريس الشافعي: كيف شهوتك للأدب؟ قال: اسمع بالحرف منه مما لم اسمعه فتود أعضائي أن لها أسماعاً تتنعم به مثل ما تنعمت بالآذان) قيل له: كيف حرصك عليه؟ قال: حرص الجموع المنوع على بلوغ لذته في المال، وقال له: وكيف طلبك له؟ قال: طلب المرأة المضلة ولدها وليس لها غيره) ويقول المزني صاحب الشافعي: سمعت الشافعي يقول: (العلم مروءة من لامروءة له)، ومن نصائحه رحمه الله لطالب العلم ما يرويه الربيع بن سليمان حين يقول: سمع الشافعي – وذكر من يحمل العلم جزافاً- فقال: (هذا مثل حاطب ليل، يقطع حزمة حطبه فيحملها ولعل فيها أفعى تلدغه وهو لايدري).

وفي رواية: (مثل الذي يطلب العلم بلا حجة كمثل حاطب ليل).

يريد من يطلب العلم ويكتبه على غير فهم، أو يأخذه من غير عالم ثقة، ومن غير أن يبحث، وعن الزعفراني تلميذ الشافعي يقول: سمعت الشافعي يقول: (من تعلم علماً فليدقق فيه لئلا يضيع دقيق العلم)، ودقيق العلم هي مسائله الخفية التي تحتاج الى عمق النظر، والمعنى: من تعلم علماً ما واختص به، ولم يعلم ما دق منه فضلاً عما ظهر فقد نقص علمه.

وعن ابي بكر الخلال يقول: سمعت الشافعي يقول: (ليس العلم ما حفظ، العلم منا نفع)، إذن فما فائدة علم دفن في الحافظة، ولم يخرج الى الناس؟ وكان الشافعي رحمه الله يقول في طلب العلم غير المهتم بفائدته: (من حضر الدرس بغير دواة ولا ورق كان كمن جاء الى الطاحون بغير قمح) أي كلاهما لايفيد من علمه شيئاً.

عن عبدالله بن محمد البلوي يقول: سمعت الشافعي يقول: (من الذل أشياء، منها: (حضور مجلس العلم بلا نسخة)، أي بلا كتاب).

ويقول الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول- في المراء الذي لافائدة منه: (المراء يقسي القلب، ويورث الضغائن)، والمراء:ا لجدال.

ومن كان يريد أن يناظر بنية البحث عن الدليل الأقوى، أو ليفهم غيره الحجة الأوضح فليكن كما روى الحسن بن محمد الزعفراني إذ يقول: سمعت الشافعي يقول: (ماناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ).

ويقول ابن عبدالحكم: سمعت الشافعي يقول: (من إذالة العلم أن تناظر كل من ناظرك، وتقاول كل من قاولك)، من إذالة العلم، أي إهانته، والمراد: ألا يناظر المرء إلا من يستحق المناظرة وهم أولئك الذين يناظرون ويبحثون ليظفروا بالحق ولو في مسألة واحدة.

ويقول أحمد بن حنبل: سمعت الشافعي يقول: سمعت مالك بن أنس يقول: سمعت محمد بن عجلان يقول: إذا أغفل العالم (لاأدري أصيب مقاتله)، أقول: ولا يقولها إلا عالم متمكن ورع، ويخشى أن يقولها: نص العالم، ونصف العالم: من لم يستطع أن يقطع بمسألة واحدة من العلم، ومن أتقن مسألة واحدة بدقائقها وأدلتها فهو عالم بها ولا شك.

وبقول حرملة: قال الشافعي: (إذا ذكر الرجل بغير صناعته فقد وهص) أي فقد كسر، يريد من اختص بعلم وخاض في غير ما اختص به وأتقنه، فقد وضع نفسه موضع النقد، بل السخرية، وهذا كسره.

وأما الطريقة التي أخذ بها الشافعي العلم عن شيوخه فتدل على قدر الذكاء عظيم، فقد كان من أكبر شيوخ الشافعي سفيان بن عيينة ومالك بن أنس، فقد سمع من الأول الحديث وكتبه وسمع من الثاني الحديث والفقه ويجمعهما الموطأ، ولا بد أنه سمع منه الكثير غير الموطأ، أما طريقة سفيان بن عيينة- وهو حافظة مكة في زمنه – فقد كان يجلس في حرم مكة ويملي حديث رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، ويكتب عنه الحديث، وكان ضيق الخلق فلا يستطيع أحد أن يسأله، ولا أن يستزيده، بل لايستطيع أن يبدؤه أحد بالسلام وإلا سمع ما لايرضيه، قال الربيع بن سليمان قال لي الشافعي: قيل لسفيان بن عيينة- وقد ضاق خلق-: يا أبا محمد، يأتيك قوم من أقطار الأرض فتضيق عليهم، يوشك أن يذهبوا ويتركوك، قال(هم إذن حمقى مثلك، إن تركوا ما ينفعهم لسوء خلقي).

ويقول الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: كنت آتي سفيان بن عيينة فلا أسلم عليه حتى يكون هو الذي يبدأني، فيلتفت الى فيقول: كيف أصبحت أصلحك الله؟ وذلك أنه كان إذا بدأه إنسان بالسلام رد عليه بضيق: كيف أصبحت ؟ كيف أصبحت؟. وأما شيخه مالك بن أنس فقد كان له مجلس في حرم المدنية، وكان مجلسه هذا مجلس هيبة ووقار وإجلال، لا يستطيع أحد مهما يبلغ من الجرأة والعلم والسلطان أن – يتكلم فيه بكلمة لم يحكم مناسبتها وموضوعها وأداءها، كما لا يستطيع أحد أن يسأل إلا في غاية من الأدب وخفض الصوت، وأن يكون ما يسأل مما يصعب أو يستشكل عند أولي الفهم في العادة، ولايجرؤ مستمع أن يستزيد الإمام حديثاً وفقهاً إذا أراد الإمام أن ينهي ما كان فيه، وإلا أخذته المقارع وأخرج.

قال أبو مصعب: (كنا نكون عند مالك، فلا يكلم ذا ذا، والناس ماثلون برؤوسهم هكذا، وكانت السلاطين تهابه وهم قاعدون يستمعون، وكان يقول في المسألة: لا، أو نعم، فلا يقال له: من أين قلت هذا؟.

وقال اسماعيل الفزاري: (دخلت على مالك فسألته الحديث، فحدثني أظنه باثني عشر حديثاً، فاستزدته – وسودان قيام على رأسه- فإذا هم حملوني وأخرجوني من داره، فرموا بي في الطريق، ودخل بقية بن الوليد على مالك- وكان لبقية شأن في العلم- فقال الناس: اليوم ننتفع بأبي محمد، يسأل مالكاً مسائل نكتبها عنه، فسألت ست مسائل، فأجابه فيها كلها. وسأله بعد ذلك فقال مالك: أكثرت، خذوا بيد الشيخ، فجاء نفسان فأخذا بضبعيه فأخرجاه .

وقال بشر بن آدم: سأل الأغضب مالكاً عن مسألة، ثم عن أخرى فأجابه ثم عن أخرى فأجابه، ثم عن أخرى فلم يجبه، فقال له هو: لم ؟ فقال مالك: ياغلام خذ بيده فاذهب به الى السجن.

وكان لمالك سجن وكان له رجال أشداء كالشر- قال الأغضب: إني قاضي أمير المؤمنين، قال: ذلك أهون لك، قال: لا أعود، قال مالك: خل سبيله.

هذان مثالان ينبئان عن لون التربية العلمية لشيخين من شيوخ الشافعي، وأظن أن لمالك فيما ذهب إليه من ظنه بالعم وتأديب الناس عذره، وهو خوفه من أن يكثر الناس من الحديث فيدخلوا في حديث النبي(صلى الله عليه وسلم) ما ليس منه، وزيادة إجلاله وتقديره لحديث رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، فإن من عظم محبته (صلى الله عليه وسلم) عظيم إجلال ما ثبت عنه قول أو قول أو إقرار.

هذا وتختلف طريقة الشافعي عن طريقة شيوخه فقد كان يذكر بعقله وعلمه ودقيق مناقشته، قال أبو عبيد القاسم بن سلام: (ما رأيت رجلاً قط أعقل من الشافعي)

ويقول أحمد بن حنبل لابن راهويه – في حكاية يذكر فيها الشافعي-: (فإن فاتك عقل هذا الفتى أخاف ألا تجده الى يوم القيامة).

وهذا يحيى بن أكثم قاضي قضاة بغداد: (ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي)

أما العلم فقد اطلع الشافعي على فقه مكة وحديثها من كثيرين منهم سفيان ابن عيينة ومسلم بن خالد الزنجي وسعيد بن سالم القداح وغيرهم.

وأخذ علم اليمن من مطرف بن مازن، وهشام بن يوسف قاضي صنعاء، وعمر بن ابي سلمة صاحب الأذرعي، وغيرهم، وأخذ علم العراق ومن وكيع ابن الجراح، وأبي أسامة حماد بن أسامة الكوفيين، واسماعيل بن علية، وعبدالوهاب بن عبدالمجيد البصريين.

وأخذ علم أهل الرأي عن أحد الصاحبين محمد بن الحسن سماعاً منه، وكتب من كتبه حمل جمل- وقد تقدم بعض هذا – تلقى هذا العلم مع أدلته، ودقيق مسائله، ثم اجتهد فكتب أصوله – و هو أول من وضع الأصول- ثم كتب مذهبه وأملاه في العراق، ومرة في مصر.

وكان رحمه الله يحث تلاميذه على الاجتهاد، وترك التقليد لكل أحد، وإن كان الشافعي شيخهم.

يقول المزني في مقدمة كتاب المختصر: (اختصرت هذا الكتاب من علم محمد بن ادريس الشافعي رحمه الله، ومن معنى قوله، لأقربه على من أراده، مع إعلامه نهيه عن تقليده، وتقليد غيره، ليتظر فيه لدينه، ويحتاط فيه لنفسه) وتتجلى روح الإخلاد لله تعالى عند الشافعي في قوله: (وددت أن الناس تعلموا هذه الكتب ولم ينسبوها إلي)

رحم الله الإمام الشافعي على ما قدم للإسلام والمسلمين من خير.

منهج التربية: عند ابن مسكويه

قد لايكون الرجل (ابن مسكويه) ذائع الشهرة معروفاً ومألوفاً عند غير المشتغلين بالتراث الإسلامي ولذا نؤثر في عجالة أن نعرف بالرجل وعصره تمهيداً للوقوف على منهجه في التربية.

هو: (ابو علي بن محمد بن يعقوب الملقب (مسكويه) ولد في الري من أبوين فارسيين مسلمين، وشب على دراسة العلوم والآداب، ثم استهواه علم الكيمياء فلازم أبا الطيب الكيميائي الرازي فترة، ثم رحل الى بغداد ولازم الوزير المهلبي عام (٣٤٨ هـ)، ثم عاد الى الري ولازم ابن العمير وكان من علماء الهندسة والفلسفة والمنطق واللغة العربية، لكن الذي يؤكد على ابن مسكويه هو اتصاله في البصرة بجماعة (إخوان الصاف) و هو أصحاب فكر منحرف وعقائد فاسدة ضالة بل إن ابتداعاتهم تخرجهم من الإسلام على الرغم من الزعم الذي يقولون به و هو: التفريق بين الشريعة الإسلامية والفلسفة التي يقولون بها، لكن يبدو والله أعلم أن الرجل ابن مسكويه لم يتوسع من جماعة إخوان الصفا ولم يأخذ عنهم شيئاً أثر على حياته بدليل تلك الوفرة من الكتب التي صنفها في التربية والأخلاق و طرق التهذيب ذلك أن كتابه(تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراف) يعتبر من الكتب المتميزة في هذا المجال من بين كتب التراث الإسلامي.

هذا وينطلق ابن مسكويه في منهجه التربوي من مقولة: ترى (أن الفضائل أنفسها ليست تحصل لنا إلا بعد أن نظهر نفوسنا الرذائل التي هي أضدادها، أعني شهواتها الرديئة الجسمانية، ونزواتها الفاحشة البهيمية، فإن الإنسان اذا علم أن هذه

الأشياء ليست فضائل بل هي رذائل تجنبها وكره أن يوصف بها، وإذا ظن أنها فضائل لزمها وصارت له عادة، وبحسب التباسه وتدنسه بها، يكون بعده من قبول الفضائل).

(فالأخلاق تكتسب بالتعليم والتهذيب والنصح المستمر، حتى تصير ملكة، فالإنسان مطبوع على قبول الخلق بالتأديب والمواعظ أن سريعاً أو بطيئاً- وهو ما يراه حقاً- ولا يجوز ترك الأحداث والصبيان على مايتفق أن يكونوا عليه بغير سياسة ولا تعليم، وهذا ظاهر الشناعة جداً) والناظر في تراث ابن مسكويه يراه قد عني عناية خاصة بالأخلاق الفاضلة، ويؤكد على إتباع طرق التهذيب والنصح والإرشاد والتحذير في تربية الأحداث والصبيان وغيرهم لكي ينشأ الطفل مطبوعاً على الفضائل، سعيداً في دينه وآخرته.

هذا ويقرر ابن مسكويه: أن الناس يتفاوتون في قبول الأخلاق، فهم ليسوا في درجة واحدة في تلقيها وقبولها، وعلى المربي ألا ييأس ويعجز بل يستمر في عمله، ويقول في هذا: (وأما مراتب الناس في قبول هذه الآداب، التي سميناها خلقاً والمسارعة الى تعلمها، والحرص عليها، فإنها كثيرة وهي تشاهد وتعاين فيهم، ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الإنسان في قبول الأخلاق الفاضلة، وتعلم معه أنهم ليسوا على رتبة واحدة، وأن فيهم المتواني والممتنع، والسهل السلس، والفظ العسر، والخير والشرير، والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب لاتحصى كثرة، وإذا أهملت الطباع،

أن يكون من ذوي الأخلاق الفاضلة، حلو الكلام، طلق الوجه، لين العريكة، جميل المظهر، لايوحشهم، يحادثهم بما يفهمونه ويتدبرونه، (من كان له صبي، فليستصب له) [1] فهو قدرتهم ومثلهم الأعلى.

–ومكانة المربي لاتتوقف على علمه، بل على حسن علمه، وسياسته الناجحة في تهذيب الأطفال قبل تعليمهم، فالتعليم بالمقابل، والتهذيب بالفعال، فإن أخلاقه وتصرفه وكلامه تنطبع في نفوس الأحداث، ومايتعلمه الطفل بالمحاكاة أكثر مما يتعلمه بالقول.

- يتجنب الزجر والشدة، والتعريض بالمقصر، يحادثهم باللين والبشاشة واللطف، يحسن الإلقاء إليهم، ينزل الى مستوى عقولهم ومداركهم، وفي الأثر، (خاطبوا الناس على قدر عقولهم)
- يكثر في ضرب الأمثال البسيطة التي تؤثر في نفوسهم، فإن حسن التصرف له أثر حسن في التوجيه والتهذيب.
- يبدأ بدرس نفوس الأطفال ومايميلون إليه ويرغبون به، ويقبلون على تلقيه، فيستغل هذا ويتبع معهم طريقة رشيدة في توجيههم الى الأخلاق الفاضلة خاصة وأن نفوسهم في هذه المرحلة ساذجة، قابلة لتلقي كل ما يحسن الإلقاء إليها.
- وإن أهمل المعلم هذه الطباع، ولم يحسن ترييضها بالتأديب والتقويم نشأ كل واحد منهم على سوم طباعه التي يعتادها بنفسه، ويقضي عمره كله على تلك الحال، ويقوم في هذا: (وإذا أهملت تلك الطباع، ولم ترض بالتأديب والتقويم، نشأ كل إنسان على سوم طباعه، وبقي عمره كله على الحال التي كان عليها في الطفولية).
- يؤكد على المؤدب أن يستغل ما يظهرونه من ميولهم ورغباتهم- كالحياء مثلاً – فيقرهم عليها بالترغيب والثناء وضرب الأمثال، يشجعهم على ما هم عليه من تصرفن ويحذرهم من ضدها، ويؤكد عليهم أن هذه الأخلاق هي التي يستحسن أن يتصف بها كل طفل نجيب عاقل، يقول في هذا: (ولذلك قلنا إن أول ماينبغي أن يتفرس في الصبي، ويستدل به على عقله الحياء، فإنه يدل على أنه قد أحسن بالقبيح، ومع إحساسه به هو، يحذره ويتجنبه ويخاف أن

---

(١) رواه مسلم وقال حديث حسن

يظهر منه أو فيه، فإذا نظرت الى الصبي فوجدته مستحيياً مطرقاً بطرفه الى الأرض، غير وقاح الوجه، ولا محدق إليك، فهو أول دليل على نجابته.. الخ)

وهو يعلق آمالاً على حسن توجيه مثل هذا الطفل، لأن بفطرته مستعد لتلقي كل حسن يلقي إليه، وتجنب كل قبيح يمس كرامة نفسه، فعلى المربي أن يضاعف عنايته به، ويحذره من مخالطة غيره، الذي لم يسكوا سلوكه خاصة وأن نفسه لم تزل ساذجة لم يطبع بها شيء، فإذا طبع على الأخلاق الفاضلة وقبلها، شب على ما طبع عليه، يقول في هذا: (وهذه النفس مستعدة للتأديب، صالحة للعناية، لايجب أن تهمل ولاتترك، ومخالطة الأضداد الذين يفسدون بالمقارنة والمداخلة، وإن كانت بهذه الأحوال من الاستعداد لقبول الفضيلة، فإن نفس الصبي ساذجة لم تنتقش بعد بصورة ولا لها رأي وعزيمة تميلها من شيء الى شيء، فإذا نقشت بصورة وقبلتها نشأ عليها واعتادها [1].

يطبع الطفل الساذج على الأخلاق الفاضلة، بالطرق الرشيدة، فإن اللين معه، والرفق به والتشويق، تحمله على الاضغاء الى مايلقى عليه، خاصة إذا أثنى المربي على مايأتيه الطفل من أفعال حسنة، وإذا بدر منه هفوة تغاضى عنها، ولم يعرض له بها، خاصة إذا حاول الطفل سترها، فإن مكاشفته تهون عليه سماع الملامة وتترك أثراً سيئاً في نفسه، وهو يقول في هذا: (ثم يمدح بكل ما يظهر منه من خلق جميع وفعل حسن، ويكرم عليه، فإن خالف في بعض الأوقات ما ذكرته، فالأولى أن لا يوبخ عليه، ولا يكاشف بأنه أقدم عليه بل يتغافل من لايخطر بباله أن تجاسر على مثله، ولا هم به، لاسيما إن ستره الصبي، واجتهد في أن يخفي مافعله عن الناس، فإنك إن عودته التوبيخ والمكاشفة حملته على الوقاحة، وحرضته على معاودة ما كان استقبحه وهان عليه سماع الملامة) [2]

وكرامة النفس من أول الأمور التي تنمي في الطفل، فيعامل معاملة رجل له كلمته ورأيه يبديه ليعتد بنفسه وتصرفه منذ صغره، وهي أسمى مطاليب الحياة، يقول في هذا: (فالأولى بمثل هذه النفس أن تنبه أبداً على حسب الكرامة، لا سيما ما يحصل منها بالدين دون المال، ويلزم سننه ووظائفه ثم يمدح الأخيار عنده، ويمدخ هو في نفسه إذا ظهر شيء جميل منه، ويخوف من المذمة على أدنى قبيح يظهر منه).

والطريقة التي رسمها في تأديب الأحداث وتهذيبهم، نافعة في تأديب الكبار وإصلاحهم وتوجيههم الى إتباع فرائض الدين وسننه، فهو يقول: (وهذه الآداب النافعة للصبيان، وهي للكبار أيضاً نافعة، ولكنها للأحداث أنفع لأنها تعودهم على

---

(١) ابن مسكويه (تهذيب الأخلاق) ص: ٦٨

(٢) ابن مسكويه (تهذيب الأخلاق) ص: ٧٠

محبة الفضائل، ويذشؤون عليها، فلا يثقل عليهم تجنب الرذائل، ويسهل عليهم بعد ذلك جميع ما ترسمه الحكمة، وتحده الشريعة والسنة)[1].

يتدرج في إرشادهم وتهذيبهم، فالاصلاح لا يكون على مرتبة واحدة، وإنما يلقى من النصائح وضر الأمثال ما يمكن أن يتلقاه الطفل فيقبله ويستسيغه ويقول في هذا: (وليس ينبغي أن يكون الطمع في إصلاحه على مرتبة واحدة وهذا يتبين فيما بعد بمشيئة الله وعونه، إلا أن الذي أدركه أن وجود الجوهر الإنساني متعلق بقدرة فاعله وخالقه تبارك وتقدس اسمه وتعالى، فأما تجويد جوهر فمفوض إلى الإنسان وهو معلق بإرادته، فاعرف هذه الجملة) [2].

فغن لم ينجح في توجيهه، فلا ييأس منه، بل يعاود الكرة ثانية وثالثة بطرق حسنة مختلفة يستهويه الى تلقيها، ثم لايزال به التأديب والسنن والتجارب، حتى ينتقل من أحوال بعد أحوال، فلذلك ينبغي أن يؤاخذ الطفل ما دام طفلاً، ويطالب بحفظ محاسن الأخبار والأشعار.

واللعب ضروري للطفل، يبعث له النشاط ويزيل عنه التعب ويذمي جسمه ويقوي عضلاته، وقد تكلم علماء الدين والتربية عن أهمية اللعب في تنشئة الأطفال وأنهم مجمعون على ضرورة اللعب، ومشاهدة الألعاب أن عجزوا باللعب.

وابن مسكويه ممن تكلموا عن هذا، ونراه يتدرج في جمل الطفل على اللعب بأن تكون الأعمال التي يمارسها لاترهق جسمه، وتبعث فيه النشاط والحركة، ويقول: (وينبغي أن يؤذن له في بعض الأوقات أن يلعب لعباً جميلاً، ليستريح فيه من تعب الأدب ولايكون في لعبه ألم ولا تعب شديد).

فإذا شب يعود المشي والحركة، والرياضة، ثم ركوب الخيل، حتى لايتعود أضدادها، ويعود أن لايكشف أطرافه، ولايسرع في المشي، ولا يرخي يديه، بل يضمهما الى صدره.

فالرياضيات تحرك الحرارة الغريزية وتحفظ الصحة وتنفي الكسل وتطرد البلادة وتبعث النشاط، وتذكي النفس.

يقول ابن مسكويه عن آداب الطعام: وهو أول ما يبدأ به المربي، فيعلمهم أن الطعام يؤخذ للصحة ولا لذة، وأخذ الأغذية على اختلافها، لصبح بها الأبدان، فهي مادة حياتها، دواء يدواي به الجوع.

وقد شبه الطعام بالدوام – كما قدمنا- فقال: (كما أن الدواء لايرام للذة، ولا يستكثر منه للشهوة، فكذلك الأطعمة ما ينبغي أن يتناول منها إلا ما يحفظ صحة

---

(١) المصدر السابق، ص: ٤٩

(٢) الصدر السابق، ص: ٧٠

البدن، ويدفع ألم الجوع، ويمنع من المرض، فيحقر عنده قدر الطعام الذي يستعظمه أهل الشره).

وأن يتجنب تناول الألوان المتعددة التي قد تفسد المعدة، ولايقدم على تناول الطعام حتى يشعر بالجوع.

ويرشده الى آداب تناول الطعام مع غيره: (فلا يديم النظر الى ألوانه، ولايحدق إليه شديداً، ويقتصر على ما يليه، ولايسرع في الأكل، ولايوالي بين اللقم بسرعة، ولا يعظم اللقمة ولايبتلعها حتى يجيد مضغها، ولا يلطخ يده ولاثوبه ولا يلحظ من يؤاكله، ولا يتبع بنظره مواقع يده من الطعام ويعود أن يؤثر غيره ما يليه إن كان أفضل ما عنده، ثم يضبط شهوته حتى يقتصر على أدنى الطعام وأدونه..) [1]

هذه القواعد القيمة مستمدة من تعاليم الدين الإسلامي، وسار عليها المسلمون في تأديب أولادهم، أما الآداب العامة في المجالس والمحادثة فهي أيضاً مما عليه التربية في الإسلام، ومنها: إذا ضمه مجلس فعليه أن لايبصق في مجالسته، ولايتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره، ولا يضع رجلاً على رجل.

وليتجنب في الحديث الكذب، ولايحلف البتة لا صادقاً ولا كاذباً، فإن قبح بالمرء، ويكون كلامه جواباً، ويعود قلة الكلام فيستمع من أهل المجلس مايفيده، خاصة إذا كان في المجلس منه أكبر منه، فيستمع الى كلامهم ويستفيد من تجارب حياتهم، ويمنع من خبث الكلام وهجينه، ومن السب واللعن ولغو الكلام، ويعود حسن الكلام وطريفه، وجميع اللقاء وكريمه، ولايرخص له أن يستمع لأضدادها من غيره، ويعود خدمة نفسه ومعلمه، وكل من كان أكبر منه.

وبعد أن بينما يراه في إصلاح الطفل، يؤكد أنه إذا ما بدأ صلاحه، فلا يهمل، بل يستمر في ارشاده وتهذيبه، والثناء عليه حتى ترسخ الأخلاق في نفسه فلا يحيد عنها، ويحمله على حفظ الأخبار والأشعار التي فيها حث على الفضائل ومكارم الأخلاق، لتذكره بما هو عليه من الطباع، وهكذا يستمر معه حتى تكون له خلقاً ثابتاً معه، ويهنأ بنعمة الله التي أنعم بها عليه في الدنيا، ويستعد لدار البقاء وهي الحياة السرمدية التي ينشدها كل مؤمن.

ويقول: (وإذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة في تأديب الأحداث، فقد عرفت أضدادها، أعني أن من نشأ على خلاف هذا المذهب والتأديب لم يرج فلاحه) [2]

وقد أبدع في كتابة وصيته التي سار عليها في حياته، وهي من أجمل ما كتب في الأخلاق الفاضلة التي لو سار الإنسان عليها كان مثالاً كاملاً للرجل الصالح العالم

---

(١) ابن مسكويه (تهذيب الأخلاق) ص:٧١

(٢) المصدر السابق، ص:٧٧

التقي، الذي هذب نفسه وأدى حق الله وأكد على (التمسك بالشريعة ولزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتى ينجزها، وأول ذلك مابين وبين الله عز وجل)[1].

وختمها بقوله: (وقوة الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله عز وجل، وصرف جميع البال إليه) فهي دستور قويم لكل عاقل يبغي سعادة الدارين.

(١) ياقوت(معجم الادباء) ١٧،١٩/٥

دور المسجد في حماية النشء من الانحراف

غير المسلمين لايدركون عظمة المسجد في بناء شخصية الأمة والحفاظ على مقوماتها وخصائصها، وبعض المسلمين قد يغفل عن دلالة ثواب وأفضلية الصلوات الخمس جماعة في المسجد، فإن مردود العبادة بالشكل الذي يمكن أن يصنعه المسجد في دنيا المسلمين تجعلنا نلقي نظرة على مكانة وأهمية (المسجد) في الإسلام تلك النظرة التي يجب أن تكون مدركة لمعنى قول الله تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [1]، فيقول الإمام ابن كثير رحمه الله تعال في تفسيرها: يخبر تعالى أن أو بيت وضع للناس، أي لعموم الناس لعبادتهم ونسكهم، ويطوفون به ويصلون إليه، ويعتكفون عنده للذي بمكة يعني الكعبة التي بناها إبراهيم الخليل (عليه السلام)[2]

والبيت الأول الذي هو المسجد الحرام، هو المكان الذي جعله الله تعالى قبلة عامة لأهل الإسلام، الذي ختم الله به الأديان، ولايقبل من أحد ديناً سواه، كما قال تعالى: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾ [3]

فقد جعل الله أفضل المساجد وأقدمها في الأرض قبلة لأفضل الأمم خير الأديان، فالمسلمون في كل المساجد يتجهون بصلاتهم الى ذلك المسجد، فهو بالنسبة للمساجد كالإمام بالنسبة للمصلين.

و ما يدل على مكانة المسجد وعظم منزلتها عند الله أنه سبحانه هو الذي فضلها، ورغب في بنائها وعمارتها مبنى ومعنى، وجعل أصل وظائفها ذكره، وأقام الصلاة له، وهي أهم أركان عبادته بعد الشهادتين، اللتين هما أصل عبادته وذكره كما قال تعالى: (﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٩٦
(٢) تفسير القرآن العظيم(١/٣٨٣
(٣) سورة البقرة الآية: ١٤٤

رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴾ (١).

والله سبحانه وتعالى، وهو مالك كل شيء نسب المساجد إليه، فليست هي لأحد سواه، لأن العبادة التي كلف عباده إياها لايجوز أن تصرف لسواه، كما قال تعالى: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ (٢).

ويؤخذ من كون المساجد لله، أنه تعالى هو الذي يشرع فيها مايريده، سواء كان ذلك يتعلق ببنائها وكيفيته أم يتعلق بما يجب فيها، وما يندب وما يباح، وما يكره، وما يحرم، فليس لأحد من الخلق أن يتدخل في شؤون المساجد إلا بما اذن الله، ومن تدخل فيها بما لم يأذن به الله، فلقد تعدى حدوده ولم يعد يعبر عن طاعة الله.

ومما يدل على مكانة المسجد عند الله أن عمارها مادياً ومعنوياً هو صفوة خلقه من الأنبياء والمرسلين، وأتباعهم من عباده المؤمنين، فلقد كان باني الكعبة أو الأنبياء (عليه السلام) وابنه اسماعيل، كما قال تعالى: (﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ ﴾)(٣) كما قال تعالى في عمار سائر المساجد(﴿ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾ ﴾) (٤) وهذا مما يبرهن على جلال المسجد وقدسيته وطهارته.

هذا، وقد وعد سبحانه وتعالى من بنى له بيتاً في الأرض أي بنى مسجداً لله تعالى أن يبني له بيتاً في الجنة، كما في حديث عثمان بن عفان(رضي الله عنه)، قال: سمعت النبي (صلى الله عليه وسلم) يقول: (من بنى لله مسجداً بنى الله كهيئته في الجنة) (٥)

---

(١) سورة النور الآيتان: ٣٦-٣٧
(٢) سورة الجن الآية: ١٨
(٣) سورة البقرة الآيتان: ١٢٧-١٢٨
(٤) سورة التوبة الآية: ١٨
(٥) متفق عليه، انظر: شرح السنة للغوي ٣٤٦/٢

ومما يدل على مكانتها وتميزها شهود الملائكة لها، والأمر بتنزيهها من الروائح الكريهة لئلا تتأذى بها الملائكة والمصلون، كما في حديث جابر(رضي الله عنه)، قال: (نهى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن أكل البصل والكرات فغلبتنا الحاجة، فأكلنا منها، فقال: (من أكل من هذه الشجرة المنتنة فلا يقربن مسجدنا، فإن الملائكة تتأذى مما يتأذى منه الأنس)[1]

فالمساجد بيوت الله، لايعمل فيها إلا بما أذن الله، وأهله هم المؤمنون من عباد الله.

ثم إن مكانة المسجد في الإسلام تظهر بجلاء من كون الرسول(ص) لم يستقر به المقام عندما وصل الى حي بين عمرو بن عوف في قباء، حتى بدأ ببناء مسجد قباء، وهو أول مسجد بني في المدينة، وأول مسجد بني لعموم الناس كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله.[2]

وكذلك عندما وصل سيره الى قلب المدينة كان أول ما قام به تخصيص أرض لبناء مسجده، ثم الشروع في بنائه.

كما روى أنس بن مالك (رضي الله عنه) وكان صغيراً في ذلك الوقت، أن رسول الله(صلى الله عليه وسلم) قدم المدينة فنزل في علوم المدينة، في حي يقال لهم: بنو عمرو بن عوف، فأقام فيهم أربع عشرة ليلة، ثم إنه أرسل الى ملأ بني النجار، فجاؤوا متقلدين بسيوفهم، قال: ف:اني انظر الى رسول الله(صلى الله عليه وسلم) على راحلته وأبو بكر ردفه، وملأ بني النجار حوله، حتى ألقى بفناء أبي أيوب، قال فكأن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يصلي حيث أدركته الصلاة ويصلي في مرابض الغنم، ثم إنه أمر بالمسجد، قال فأرسل الى ملأ بني النجار فجاءوا: فقال: (يا بني النجار شامنوني بحائطكم هذا) قالوا: (لا والله لانطلب ثمنه، إلا الله، قال أنس فكان فيه ما أقول: كان فنشبت، وبالخرب فسويت، قال فصفوا النخلة قبلة، وجعلوا عضادتيه حجارة قال: فكانوا يرتجزون ورسول الله (صلى الله عليه وسلم) معهم، وهم يقولون

اللهم لا خير الى خير الاخرة فانصر الانصـــــار والمهاجرة [3]

ومن الواضح البين أن اهتمام الرسول(صلى الله عليه وسلم) ببناء المسجد أول قدومه المدينة يدل على مكانة المسجد وأهميته في الإسلام، وأنه ضرورة من ضرورات الدين الإسلامي، لكن الذي يدل على مكانته أكثر هو كون الرسول (صلى

---

(١) رواه مسلم (٢٩٤/١)
(٢) انظر البداية والنهاية(٢٠٩/٣)
(٣) رواه مسلم(٣٧٣/١)، زاد المعاد، لابن القيم (٦٢/٣)

الله عليه وسلم) اكتفي ببنائه، للصلاة وغيرها من الشعائر التعبدية، وللوظائف الأخرى المتعلقة بسياسة الدول بأكملها، فإن ذلك يدل على أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) قصد أن لايفرق بين أداء الشعائر التعبدية وغيرها من سياسة الدولة ليعرف أمته أن الدين شامل لإقامة كل خير في هذه الأرض وليس خاصاً بنوع معين من أنواع العبادة التي تؤدي لله تعالى.

ولو لم يكن هذا المعنى هو مقصوده(صلى الله عليه وسلم)، ولو كان المسجد خاصاً بأداء الشعائر الدينية ولا يليق به غير ذلك، لسارع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى تخصيص مكان آخر لادارة شؤون الدولة فيه، وما الذي يعجزه عن ذلك، والأنصار يتسابقون بكل ما يملكون من أرض ليضعوها بين يدي رسول الله(صلى الله عليه وسلم)، وهم والمهاجرون يتسابقون في عمل ما يريد من بناء وغيره؟ ولعل فعل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ذلك، كان بأمر من ربه الذي يعلم أنه سيأتي بعد نبيه(صلى الله عليه وسلم) من أمته من يدعو الى التفريق بين الدين والدنيا، والعبادة والسياسة أو كما يعبر عنه بين ما لله لله وما لقيصر لقيصر، أن يكتب جواباً عملياً في صفحات التاريخ للعلمانيين الذين يريدون أن يعتدوا على حكم الله.

هذا هو الأساس الأول الذي اقام الرسول(صلى الله عليه وسلم) دولته عليه، أما الأساس الثاني فكان المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار الذي كان يجمعهم المسجد للعبادة والتشاور والجهاد وغيرها [1].

أما الأساس الثالث فكانت تلك المعاهدة التاريخية التي كانت نتيجتها أن تكون القيادة للرسول (صلى الله عليه وسلم) على المسلمين والمشركين واليهود [2].

ومهما تحدث الكاتبون عن مكان المسجد، ومهما اوردوا من النصوص في ذلك فإن وظائف المسجد أكثر إظهاراً لمكانته في الإسلام، فعلى سمائه ترتفع الدعوى الى الايمان والعمل الصالح، وفي صحته يؤخذ الإيمان ويؤدي العمل الصالح، ومن على منبره يعلم الايمان والعمل الصالح، وفيه يدعى الى الجهاد في سبيل الله وفيه تنظيم كتائب الجهاد في سبيل الله، ومنه تنطلق جحافل الايمان تحت راية الجهاد في سبيل الله.

ومن المسجد ينطلق صوت المؤذن مدوياً في كل حي من أحياء المسلمين وكل ما يعمل في المسجد من الخير انما هو استجابة لنداء الحق الذي اشتملت عليه الفاظ الاذان.

---

(١) زاد المعاد لابن القيم (٦٣/٣).

(٢) راجع السيرة النبوية لابن هشام، مصطفى الحلبي (٤٩٦/١)، (٥٠٤،٥٠١) وزاد المعاد (٦٥/٣).

إن الآذان يبدأ بتعظيم الخالق ووحدة المعبود (الله اكبر... اشهد ان لا إله الا الله..) ثم يتبعه وحدة المتبوع: أشهد أن محمدا رسول الله..) ثم تأتي الدعوة الى اقامة اعظم ركن بعد الشهادتين: (حي على الصلاة..) ثم الدعوة الى الفلاح وهو الفوز العام برضا المعبود واتباع المتبوع: (حي على الفلاح ..) ثم يختم به، وهو التعظيم والتوحيد (الله اكبر لا اله الا الله..) وبنحو ذلك تأتي الاقامة لكل صلاة.

إنا دعوة الى الايمان والعمل الصالح، وتطبيق للايمان والعمل الصالح، فالاذان والصلاة بجميع أذكارها وقراءتها وقيامها وسجودها وركوعها وقعودها وحركاتها وسكناتها هي تثبيت للايمان، وهي تعظيم وتوحيد للاله المعبود، وفي اتباع الرسول الكريم(صلى الله عليه وسلم) ينطلق صوت المؤذن في اليوم والليلة خمس مرات في كل ارجاء الارض، فيستجيب له ملايين الناس، تاركين كل شيء من ورائهم، ليقووا صلتهم بربهم ويؤدوا له ما فرض عليه في بيوته التي أذن أن ترفع ويذكر فيها اسمه، فأين مجال الانحراف؟ وأين الوقت الذي يمارس فيه؟.

إن أوقات الراحة التي صعب على غير المسلم الصادق فيها أن يفارق مضجعه تجد المسلم يثب ملبياً نداء الحق ولايتكاسل عن حضور صلاة الجماعة في تلك الاوقات إلا من يتهم بالنفاق ما لكم يكن معذوراً شرعاً، ولهذا روى ابو هريرة (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (إن أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون مافيهما توجهوا ولو حبوا، ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آخر رجلاً فيصلي بالناس، ثم انطلق معي برجال معهم حزم من حطب الى قوم لا يشهدون الصلاة، فأحرق عليهم بيوتهم بالنار)[1].

فالمسجد هو مقر إقامة الصلاة المفروضة، والذي تخلف عنها بدون عذر يسم نفسه بسمة النفاق، ويحب على ولي الأمر أن يحمل رعيته على حضور صلاة الجماعة في كل وقت يعاقب من تخلف بغير عذر بالعقاب المناسب، غير ماتركه الرسول (صلى الله عليه وسلم) وهو الاحراق بالنار.

وهذا مافهمه أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأنه لايتأخر عن حضور صلاة الجماعة بدون عذر الا المنافق، وكانوا من شدة خشيتهم على أنفسهم من النفاق يحضرون صلاة الجماعة، وهم مرضى يهادي الرجل منهم بين الرجلين، ويرون أن من لم يحضر الصلاة وهو قادر ضال عن سبيل الله وهداه، قال ابن مسعود (رضي الله عنه): (من سره أن يلقى الله غداً مسلماً، فليحافظ على هؤلاء الصلوات حيث ينادى بهن، فإن الله شرع لنبيكم سنن الهدى، وأنهن من سنن الهدى، ولو أنكم صليتم في بيوتكم، كما يصلي هذا المتخلف في بيته، لتركتم سنة نبيكم، ولو

---

(١) رواه مسلم (٤٥٢/١).

تركتم سنة نبيكم لضللتم، وما من رجل يتطهر فيحسن الطهور، ثم يعمد الى مسجد من هذه المساجد إلا كتب الله له بك خطوة يخطو ها حسنة ويرفعه بها درجة، ويحط عنه بها سيئة ولقد رأينا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم الذفاق، ولقد كان الرجل يؤتى به يهادي بين الرجلين، حتى يقام في الصف)[1].

وللمسلمين عيد أسبوعي يجتمع فيه أهل كل مدينة في أكبر مساجدهم في غاية النظافة، وبأجمل اللباس، وبأطيب الروائح، افضلهم أجراً من جاء مبكراً الى المسجد وذلك لحضور صلة الجمعة، والانصات لخطبتيها قبل الصلاة، إن المسلمين في هذا اليوم يخرجون من بيوتهم لصلاة الجمعة وسماع خطبتيها فرضا وليس ندباً، وليس هناك خطبة يجب الانصات لها بدون لغو ولا عبث كخطبتي الجمعة لذلك يستطيع الخطيب في يوم الجمعة أن يعترض لأي أمر يرى المسلمين يحتاجون اليى بيانه، ويستطيع المسلم بسماعه خطب الجمعة أن يتعلم كثيراً من أمور دينه وما يحل له ومايحرم.

إن خطب الجمعة يمكن أن تستمر في سلسلة طويلة عن معنى الإيمان ومايقويه ومايضعفه، وسلسلة أخرى عن بيان فروض العين وما يتعلق بها، وسلسلة أخرى عن بيان فروض الكفاية ورابعة عن الجهاد في سبيل الله وخامسة عن اساليب الدعوى الى الله، وسادسة عن مكر أعداء الله ووسائل الوقوف ضدهم، وهكذا يبدو جليا أن خطب الجمعة وحدها مدرسة مستمرة الي يوم القيامة لو احسن القيام بها، ووجد الخطيب الكفء في مساجد المسلمين بدلاً من أن نشغل من على المنابر بالخطب (العنترية) التي تتناول بعض الناس بالنقد والتحريم أو إثارة الفتن والشبهات.

هذا وهناك صوات النوافل التي تسن إقامتها في المسجد منها تحية المسجد التي

يسن أن يصليها ركعتين قبل جلوسه، وصلاة التراويح التي أقامها رسول الله (ص)

في بعض ليالي رمضان، ثم تركها خشية أن تفرض على أمته، ولما توفي (ص)

وانتفت العلة أقامها أصحابه رضي الله عنهم جماعة وراء إمام واحد اقتداء به(ص)

---

(١) رواه مسلم (٤٥٢/١).

وكذلك صلاة ركعتين بين الآذان والاقامة من كل صلاة ولا مانع من أداء النوافل الراتبة قبل الصلاة وبعدها في المسجد وغن كان الافضل أداؤها في المنازل.

وكذلك صلاة العيدين، يجوز أداؤها في المسجد وإن كان الافضل ان تقام في الصحراء، وكذلك صلاة الاستغاقة، وفي المسجد تقام صلاة الكسوف لكسوف الشمس أو القمر ومع تلك الصلوات يستحسن أن يخطب الإمام للناس خطبة تناسب المقام.

والأعمال الصالحة التي تؤدي في المسجد قراءة القرآن بتدبير وخشوع، وحفظه والاجتماع لتدارسه، كما روى ابو هريرة (رضي الله عنه) عن الذبي (صلى الله عليه وسلم) حديثاً: وفيه: (وما اجتمع قو في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده..)[1].

ومن ذلك ذكر الله سبحانه وتعالى، ما كان مقيداً منه بعدد ووقت كذكر أدباء الصلوات من تسبيح وتحميد وتكبير وتهليل، وما كان غير مقيد وهو الذكر المطلق الذي شرع الله الاكثار نه ومنه التهليل والصلاة على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وغيرها[2].

---

(١) ابن رجب، رواه مسلم، انظر جامع العلوم والحكم، ص:٢٩٥

(٢) وقد فصل ذلك- أي الذكر المقيد والمطلق- في كتب الاذكار، راجع منها: كتاب الكلم الطيب لابن تيمية رحمه الله.

ومن ذلك الاعتكاف المشروع في المسجد وبخاصة في العشرة الاخيرة من شهر رمضان، كما كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يفعله، وفعله اصحابه من بعده.

ومن ذلك الصلاة على الجنائز التي اعتادها المسلمون، لكثرة المصلين ويرجى من الخير للميت مع وجود الكثرة ما لايرجى مع القلة في الغالب.

وهكذا كان المسجد منبراً للدعوة الى الايمان والعمل الصالح، كما كان تطبيقا عملياً لتلك الدعوة الاسلامية السامية من عهد الرسول(صلى الله عليه وسلم) الى أن تقوم الساعة، وإن مرت فترات ضعف فيها عمل الخير العام في المسجد، لبعد الناس عن تطبيق هدي المصطفى (صلى الله عليه وسلم).

وهكذا كان(صلى الله عليه وسلم) يدعو الناس الى الجهاد في مسجده ويشاورهم في ذلك في مسجده، ويلبس سلاحه ويخرج أصحابه في مسجده، وكان ينطلق بهم للجهاد من مسجده، كما كان ينطلق بهم للحج منه [1].

وكان ينعي (صلى الله عليه وسلم) الشهداء من المجاهدين على قبره [2] وعندما ارتدت العرب بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وخشي ابو بكر ان يغزوا

(١) راجع البداية والنهاية لابن كثير (١٢/٤-١٣).
(٢) البداية والنهاية (٢٥٥/٤.

المدينة، جعل على أنقابها حراساً، والزم الناس بحضور المسجد، ولما علم بغارة العدو خرج في أهل المسجد على النواضح واتبعوا العدو حتى هزموهم[1] .

لقد كان القرآن الكريم، ينزل على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) منجماً أي مفرقاً، سواء ما تعلق منه بالايمان، أو ما تعلق بالأحكام، وكان أكثر ما نزل عليه قبل الهجرة آيات الايمان لمدة ثلاثة عشرة عام لغرز الايمان في النفوس، ودحض شبهات منكريه، فلما انتقل(صلى الله عليه وسلم) الى المدينة رافق آيات القرآن المتعلقة بالايمان، الآيات التي شرع الله فيها الأحكام، لتبين للناس ما يحل لهم وما يحرم، ولتحدد لهم سلوكهم المتعلق بحقوق الله وحقوق خلقه.

وكان الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعلم أصحابه في مكة في المنازل وخاصة دار الارقم بن ابي الارقم بتجمعهم، ولم يكن المسجد الحرام ينال حظه من التعليم والتزكية، لصد المشركين فيه رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وايذائهم له، فكان يدعو فيه ويصبر على أذاهم، فلما انقل الرسول(صلى الله عليه وسلم) الى المدينة، وبنى مسجده الشريف بني حجرات نسائه بجانبه، ليكون قريبا منه، فكان ينزل عليه الوحي في المنزل أو في بيته، وهو يتلوه على أصحابه في مسجده ويعلمهم معناه، كما كان يعلم الوحي الثاني، وهي السنة، وكان تعليمه لهم بالقول والفعل.

---

(١) المرجع السابق: ٦/٣١٢-٣١٣.

وقد اشار الله سبحانه وتعالى الى حكمة تنزيل الوحي مفرقاً على رسول الله (ص)، وهي أن يعلمهم من أحكام دينهم على مهل وتؤدة، يرافق العلم العمل، بخلاف ما اذا انزل دفعة واحدة، فإن تكليفهم بكل ما فيه من ايمان وعمل وجهاد قد يشق عليهم، قل: (﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ (١)

إن الله تعالى بعث رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ليتلو على الناس القرآن، ويعمم هديه وسنته، ليخرجهم من الظلمات الى النور، ويطهرهم من دنس الفواحش والآثام كما قال تعالى: ﴿ لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٢)

فكان مسجده (صلى الله عليه وسلم) مقر تعليمه الأمة قولاً وعملاً، وكان أصحابه يتحلقون حلوه، ليسمعوا حديثه، كما روى أبو واقد الليثي (صلى الله عليه وسلم) قال: (بينما رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، جالس في المسجد والناس معه اذ اقبل ثلاثة نفر فأقبل اثنان على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وذهب واحد فوقعنا على رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، فأمما أحدهما فرأى فرجة في الحلقة، فجلس فيها وأما الاخر فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهباً، فلما فرغ رسول الله

(١) سورة الاسراء الآية: ١٠٦.
(٢) سورة آل عمران الآية: ١٦٤.

(صلى الله عليه وسلم) قال: (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة ؟ فاوى الى الله عز وجل، فأواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض الله عنه)[1].

واتخذ (صلى الله عليه وسلم) لنفسه منبراً يحدث الناس في الجمعة وغيرها، ليشاهدوه ويتعلموا منه رؤية وسماعاً كما روى أبو حازم، رحمه الله نفراً جاؤوا الى سهل بن سعد(صلى الله عليه وسلم)، قد تماروا في المنبر، من أي عود هو؟ فقال: (أما والله إني لأعرف من أي عود هو ومن عمله، ورأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أول يوم جلس عليه قال: فقلت له: يا أبا عباس فحدثنا، قال: أرسل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الى امرأة: (انظري غلامك النجار، يعمل لي أعواداً أكلم الناس عليها، فعمل هذه الثلاث درجات ثم أمر بها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) فوضعت هذا الموضع فهي من طرفاء الغابة، ولقد رأيت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قام عليه فكبر، وكبر الناس وراءه، وهو على المنبر، ثم رفع فنزل القهقري، حتى سجد في أصل المنبر، ثم عاد حتى فرغ من آخر صلاته، ثم أقبل على الناس، فقال: (أيها الناس، إنما صنعت هذا لتأتموا بي ولتعلموا صلاتي)[2].

(١) رواه البخاري ومسلم، انظر: جامع الأصول: ١١/٨.
(٢) رواه مسلم: ٣٨٧/١.

فقد كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعلم الناس بكلامه، ويعلمهم بفعله ليعملوا كما يعمل.

وكان (صلى الله عليه وسلم) يسأل اصحابه، وهو يعلمهم ليشحذ أذهانهم ويهيؤهم للإصغاء لما يقول لهم، ويضرب لهم الأمثال ليقرب لهم المعاني التي يريد أن يفهموها.

ويقول: (وإذ قد عرفت هذه الطرق المحمودة في تأديب الأحداث، فقد عرفت أضدادها، أعني أن من نشأ على خلاف هذه المذهب والتأديب لم يرج فلاحه)[1]

وقد أبدع في كتابة وصيته التي سار عليها في حياته، وهي من أجمل ما كتب في الأخلاق الفاضلة التي لو سار الإنسان عليها كان مثالاً كاملاً للرجل الصالح العالم التقي، الذي هذب نفسه وأدى حق الله وأكد على (التمسك بالشريعة ولزوم وظائفها، وحفظ المواعيد حتى ينجزها، وأول ذلك ما بيني وبين الله عز وجل).

وختمها بقوله: (وقوة الأمل وحسن الرجاء والثقة بالله عز وجل، وصرف جميع البال اليه) فهي دستور قويم لكل عاقل يبقي سعادة الدارين.

كما روى عبدالله بن عمر(رضي الله عنه) عن النبي (ص) قال: (إن من الشجر لايسقط ورقها وإنها مثل المسلم، حدثوني ما هي؟ قال: فوقع الناس في شجر

---

(١) المصدر السابق، ص: ٧٧.

البوادي، قال عبدالله، فوقع في نفسي أنها النخلة ثم قالوا: حدثنا يارسول الله قال: هي النخلة)[1]

وكانوا يسألونه عما أشكل عليهم في المسجد، كما روى عبدالله بن عمر(رضي الله عنه)، أن رجلاً قام في المسجد فقال: يارسول الله، من اين تأمرنا أن نهل؟ فقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (يهل أهل المدينة من ذي الحليفة، ويهل أهل الشام من الجحفة، ويهل أهل نجد من قرن.. ويهل أهل اليمن من يلملم)[2].

وكان أصحابه الذين آمنوا به، وديارهم بعيدة عنه، يغدون إليه ليتعلموا منه، فينزل في مسجده، فيأخذون منه الفقه في الدين ثم يعدون كما روى مالك بن الحويرث (رضي الله عنه) قال: أتينا الله (صلى الله عليه وسلم)، ونحن شبية متقاربون، فأقمنا عنده عشرين ليلة، وكان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) رحيماً رفيقاً، فظن أننا قد اشتقنا إلى أهلنا، فسألنا عمن تركنا من أهلنا، فأخبرناه، فقال: (ارجعوا الى أهليكم، فأقيموا فيهم، وعلموهم، ومروهم، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن لكم أحدكم، ثم ليؤمكم أكبركم)[3]

(١) رواه البخاري (٢٢/١) .
(٢) رواه البخاري (٤٢/١).
(٣) رواه البخاري (٤٤٦/١).

إن الذي يجب أن ينتبه له العلماء والمصلحون ممن يعنون بدراسة دوافع الانحراف ودواعيه والضغوط التي تؤدي إليه من مؤثرات البيئة ورفقة السوء وغيرها أن علماء المساجد وطلابها أقرب إلى عامة الناس من طلاب المدارس والجامعات، حيث تجد عامة الناس يقبلون إلى عالم المساجد وطلابه، ويستفيدون منهم، كما تجد عالم المسجد وطلابه يهتمان بعامة الناس في التعليم والدعوات أكثر من غيرهم، ولا شك أن الارتباط بين طلاب العلم وجمهور الشعب له مزاياه الكثيرة في التعليم والدعوة والتوجيه والابتعاد عن الانحراف.

وقد أشار الى هذه الفروق سماحة الشيخ عبدالله بن محمد بن حميد رحمه الله كما قال: (وهكذا تخرج من هذه المساجد أساطين العلم الأفاضل الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم، وما هم عليه من الصلاح والتقوى، وما قاموا به من جهود عظيمة، احتسبوا أجرها عند الله، في الدعوة الإسلامية، ونشر الثقافة الإسلامية، هذه مؤلفاتهم في مختلف الفنون: في التفسير والحديث والفقه والتاريخ، وعلوم الآلهة، وغيرها كلها تشهد لهم بما قدموا من علوم [1].

(١) انظر: مجلة رسالة المسجد، رابطة العالم الاسلامي، العدد السادس، السنة السادسة، ١٤٠٣هـ، ص: ١٥ وما بعدها.

ولم يقتصر المسلمون على علوم الشريعة وإنما أحرزوا قصب السبق في كل العلوم التي وجدت في عهدهم، وسل عنهم من أظهر شيئاً من الإنصاف من أعدائهم ترى العجب العجاب، والحق ماشهدت به الأعداء.

وهذا ما أنعم الحق به ونعم الخالق سبحانه لاتحصى، وآخر دعونا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم(صلى الله عليه وسلم)

خادم القرآن
محمد بن محمود العبدالله